أبي آدم

قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة

الدكتور عبد الصبور شاهين





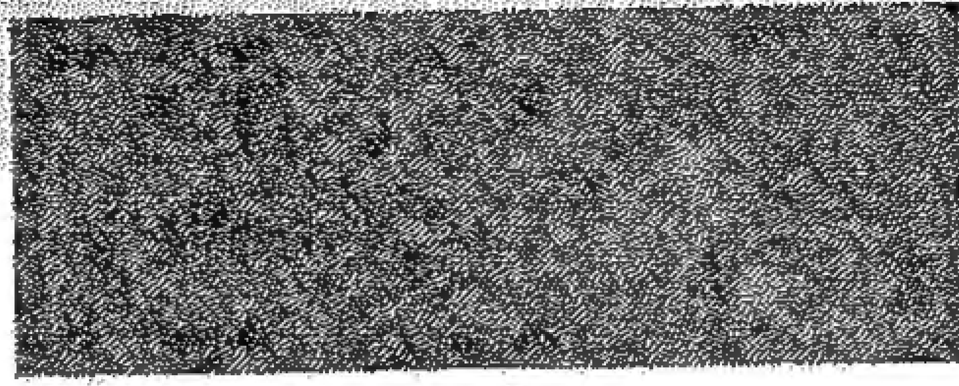
قطاع الثقافة

إهـــــــداء ٢٠٠٩

المرحوم / فهيم حافظ الدناصورى

جمهورية مصر العربية

دار
أخبار اليوم

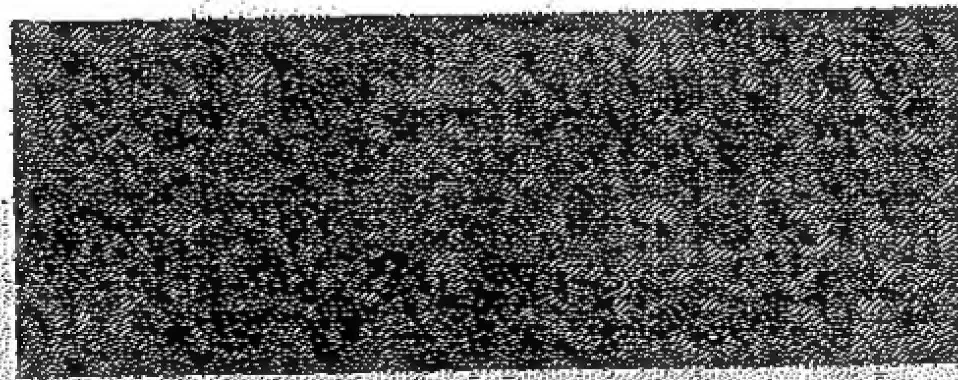


رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

مدير عام قطاع الثقافة :

نبيل أباظة



• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
• البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

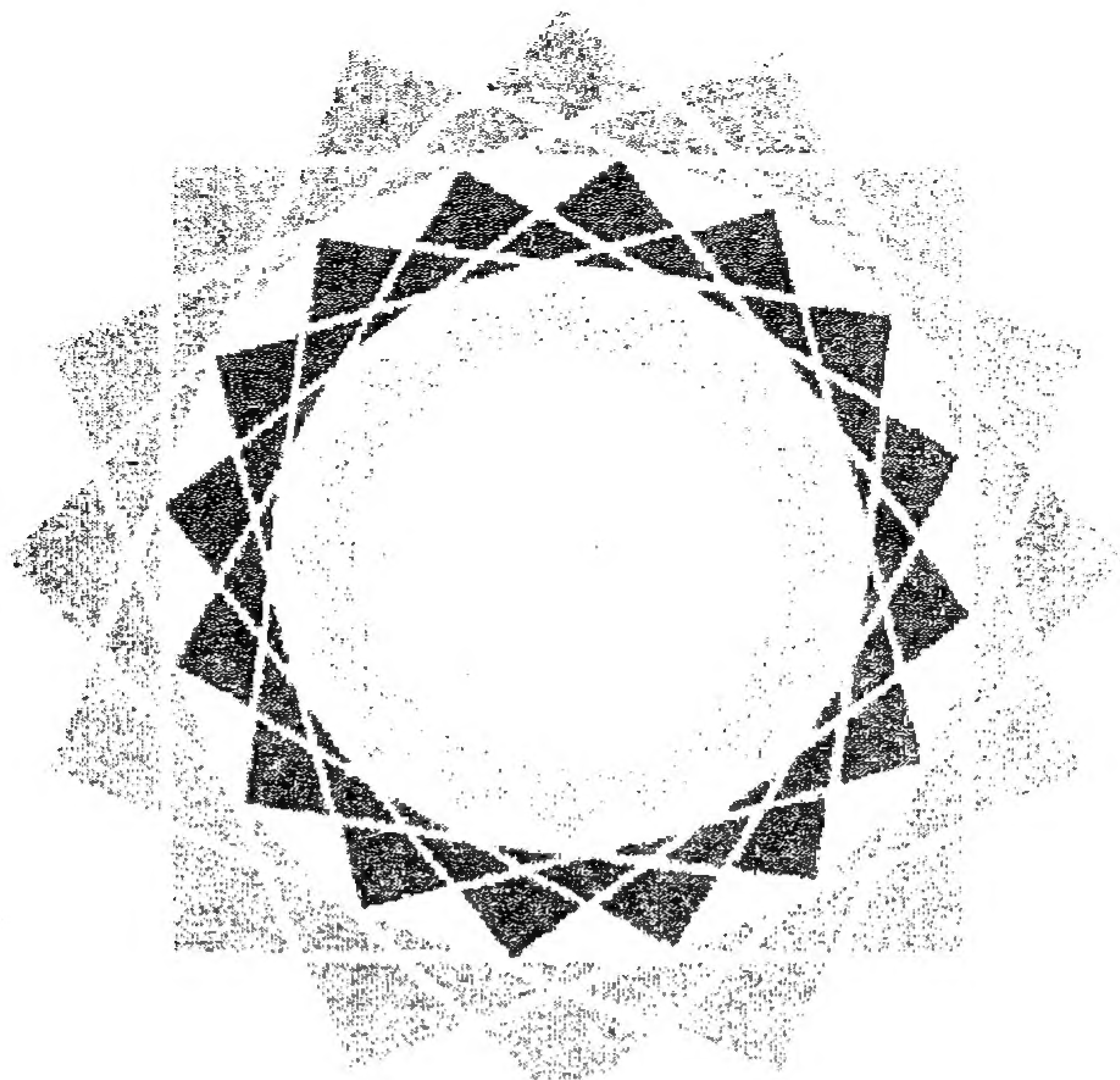
دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

أبي آدم

قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة

الدكتور عبد الصبور شاهين





تصميم الغلاف والصفحات الداخلية



عبد الكريم محمـود

مقدمــــة

قديماً .. قديماً .. قبل أن يخلق الزمان .. كان الله ولا شيء معه .

ثم أراد الله أن يخلق الخلق ، أو الكون ، فقال : كن ، فكان ماأراده الله زماناً ، ومكاناً .. سموات وأرضين ، ومجرات ، ونجوماً وكواكب ، ودواب.. وما لا نعلم من الموجودات التى أنجزتها القدرة الكُنِّيَّة .

ثم أراد اللَّه أن يوجد المخلوق العاقل المؤهل للمعرفة .. فكان الإنسان ..

ولعل هذا هو المعنىُّ بما جاء فى الحديث القدسى الذى حفظناه فى صغرنا ، والذى يقول اللَّه عز وجل فيه عن نفسه : (**كنت كنزاً مخفياً ، فأردت أن أُعرف فخلقت الخلق ، فبى عرفونى**)(١) ـ أو كما قال ..

فأما الزمان والمكان فقد خلقا لتحديد ماهية الأشياء ، وقد جعلهما الخالق سبحانه على مرتبتين : غيب ، وشهادة ، وإذا كان عَالَمُ الغيب قد احتجب وراء أستار الزمان والمكان ، لا يعلم حقائقه إلا موجده سبحانه – فإن عالم الشهادة يحمل فى تفاصيله ملامح ما مضى من الغيب النسبى ، وهو أيضاً دال على وجود الخالق .. الغيب المطلق .. أو غيب الغيب ، وهكذا نرى حقيقة وجود اللَّه فى تصاريف قدرته : ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** .. ۝٥٠ ﴾ [الروم] .. أى : كأننا – وقد احتجب عنا ذو الجلال – نستطيع أن نستجلى وجوده فى النظر إلى آثار رحمته .. يكفينا بعض آثار هذه الرحمة لنوقن بوجوده سبحانه ، أما الرحمة فلا

---

(١) قصد المؤلف بإيراد هذه المقولة الدلالة على قدم الخالق وحداثة الخلق ، وهو معنى ظاهر من النص .

سبيل إلى النظر إليها ، لأنها صفة من صفات اللّه ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، ولعل ذلك بعض معنى الحديث : (جعل اللّه الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً ، فَمِنْ ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) .

إن كل ما فى كيان الإنسان ، وواقعه ، وزمانه ، ومكانه هو من آثار رحمة اللّه ، وحَسْب الإنسان أن ينظر فى نفسه ليستيقن بوجود خالقه ، وليتبين آثار رحمته فى خلقه وتسويته وتزويده بالنفخة العلوية التى صار بها متميزاً عن سائر المخلوقات المشاركة فى الحياة الأرضية .

ونحن نخطئ أحياناً حين ننظر إلى الحياة فلا نرى منها غير ذواتنا .. نحن الأناسىّ ، فأما الطير ، والحيوان والحَشَر ، وما ضمّه عالم البحار – فكل ذلك مجرد كائنات متحركة ، تظل تتحرك حتى يخمدها الإنسان لينتفع بها ، أو تلقى مصيرها المحتوم فتبيد ، بمشهد من غطرسة الإنسان الذى يتربع على عرش السيادة على غيره من الكائنات .. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية]

إن القرآن لا يشجع النظرة المستعلية التى تحبس إدراك الإنسان داخل جدران ذاته ، وهو يفتح أمام النظر الإنسانى نافذة رحبة لرؤية غيره بقدر ما يرى نفسه ، واللّه يقول : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام] ، فكل ما خلق اللّه من الدواب .. كبر أو صغر ، هو من الأمم التى خلقها اللّه ، وألزمها بسنن حياتها ومصيرها .. بل وعلّمها ما هى بحاجة إليه فى بقائها واستمرارها ، وعلاقاتها بالأمم الأخرى من الدواب ، وجاءت فى ذلك إشارة القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ

لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ [النور] ، وهى إشارة تثبت لعوالم الطير والحشر ، والحيوان .. وعلى وجه الإجمال : كل من له حياة .. تثبت لها العلم والصلاة والتسبيح ، وهو أمر أكَّدته الآية الثالثة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

ومن المعلوم أن أمم الحيوان والطير قد سبقت فى وجودها وجود الإنسان على الأرض ، حسبك من ذلك إشارة القرآن إلى الغراب الذى علّم ابن آدم القاتل كيف يوارى سوأة أخيه ، ولكن وجود هذه الكائنات لم يشغل بال الإنسان ، لأنه لا يمثل فى نظره مشكلة ..

فأما وجود الخليقة البشرية فهو المشكلة الكبرى التى تواردت عليها الرؤى ، وتواترت الاجتهادات .. بدءاً من الرؤية الإسرائيلية ، وقد كانت ذات حظ عظيم من حيث انتشارها ، وتفردها على الساحة الفكرية ، حتى وجدنا أكثر المفسرين للقرآن يرددون ما ذكرته الإسرائيليات ترديداً حرفياً .. دون أدنى محاولة تعرض مضمونها على العقل ، وتغربل ما حفلت به من خرافات وأساطير .

وإلى القارئ جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء ، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص ١٦ - ١٧- ط . شقرون) :

(قال المفسرون بألفاظ مختلفة ، ومعان متفقة : إن اللّه تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى اللّه إلى الأرض : إنى خالق منك خلقاً ، منهم من يطيعنى ، ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى منهم أدخلته

الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار ، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها ، فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض : إنى أعوذ بعزة اللّه الذى أرسلك أن لا تأخذ منى شيئاً يكون فيه غداً للنار نصيب ، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئاً ؛ قال : يارب ، استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها .

فأمر اللّه عز وجل ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت باللّه أن يأخذ منها شيئاً ، فرجع إلى ربه ، ولم يأخذ منها شيئاً .

فبعث اللّه تعالى ملك الموت فأتى الأرض ، فاستعاذت باللّه أن يأخذ منها شيئاً ، فقال ملك الموت : وإنى أعوذ باللّه أن أعْصَى له أمراً ، فقبض قبضة من زواياها الأربعة .. من أديمها الأعلى ، ومن سبختها ، وطينها ، وأحمرها وأسودها وأبيضها ، وسهلها وحزنها ، فكذلك كان فى ذرية آدم الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والجميل والقبيح ، ولذلك اختلفت صورهم ، وألوانهم ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم] ، ثم صعد بها ملك الموت إلى اللّه تعالى فأمره أن يجعلها طيناً ويخمرها ، فعجنها بالماء المر والعذب ، والملح ، حتى جعلها طيناً ، وخَمَّرَها ، فلذلك اختلفت أخلاقهم .. ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طيناً لازباً ليناً ، ثم تركها أربعين سنة حتى صارت صلصالاً كالفخار ، وهو الطين اليابس ، الذى إذا ضَرَبْتَه يدُك صلصل .. ثم جعله جسداً ، وألقاه على طريق الملائكة التى تهبط إلى السماء ، وتصعد منه أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] .

قال ابن عباس : (الإنسان هو آدم ، والحين أربعون سنة ، كان آدم

جسداً ملقى على باب الجنة ، وفى صحيح الترمذى بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير أول البقرة : أن الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض .. ثم ألقاه على باب الجنة فكلما مرَّ عليه ملأٌ من الملائكة عجبوا من حسن صورته ، وطول قامته ، ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئاً يشبهه من الصور ، فمر إبليس فرآه فقال : لأمرٍ ما خُلِقْتَ ، ثم ضربه بيده فإذا هو أجوف ، فدخل فيه وخرج من دبره ، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة : هذا خلق أجوف .. لا يثبت ولا يتماسك .. إلخ ..) .

على هذا مضت كل كتب التفسير تقريباً ، وكأنها تنقل من مصدر واحد ، مع انطواء الرواية على كثير من صور السذاجة .. مثل أن يقال : إن خلق آدم تم فى السماء ، وإن ملك الموت هو الذى استطاع أن يأخذ التراب من الأرض ، وأن يعجنه ويخمّره ، فلما خلقه الله أو صوّره ألقاه على باب الجنة .. ويستمر الكلام فى هيئة (سيناريو) .. يصف لنا ما جرى فى ذلكم الأزل الآدمى ، فيجعل التراب خليطاً من ألوان الأرض ، ليكون أبناء التراب على ألوانها المختلفة ، وخليطاً من أنواع التراب إشارة إلى تنوع الأخلاق ... وهكذا ...

كل ذلك مضى فى الغيب ، فكيف اطّلع عليه هؤلاء القصّاص من بنى إسرائيل ؟!!

وكيف سلّم العقل الإنسانى لحكاياتهم بهذه البساطة ؟ حتى اختصرت المسافة بين الله فى ملكوته الأعلى - وبين خلقه من الملائكة ، والشيطان ، إلى أن جاء دور آدم ؟

إن كل ذلك صار يمثل أمام العقل الحديث مشكلة خطيرة ، نتيجة التصادم بين معطيات القصة القديمة ، ومعطيات العصر الحديث ، وهو ما ظل يخامر عقلى طيلة ربع قرن من الزمان ، أو يزيد ، فى محاولة لفهم النصوص التى جاءت فى القرآن الكريم ، وهى قطعية .. تروى وقائع قصة الخلق ، وأيضاً للتوفيق بين التصوير القرآنى ، والاتجاه العلمى فى تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض ، ولاحرج علينا فى هذا مادمنا نرعى قداسة النصوص المنزّلة ، ومادمنا لا نخالف معلوماً من الدين بالضرورة ، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق ، وتستنطق اللغة من جديد ، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوى عليه كتاب اللّه من أسرار، قد تكون خفيت عن بصائر ذوى التمييز ، ثم أذن الله سبحانه لبعض السر أن ينكشف ، وللرؤية أن تنجلى ، وهو مانؤمّل أن نكون قد حققناه فى هذا الكتاب .

ليست هذه هى المحاولة الوَحِيدَة التى تناولت قصة الخلق ، فقد شغلت القصة عقول الفلاسفة والعلماء فى عصور مختلفة ، وبيئات مختلفة كذلك، ويكفى أن نشير هنا إلى رؤية ابن طفيل قديماً فى قصته عن (حىّ بن يقظان) كما نُذَكّر بنظرية (تشارلز داروين) حديثاً عن نشأة الأنواع .

وأول ما اعترض ابن طفيل من المشكلات : (مشكلة خلق الإنسان ، أو كيف ظهر أول إنسان على وجه الأرض) .. يقول الأستاذ أحمد أمين فى (حى بن يقظان - ص ٢٣ - ط . دار المعارف) عن ابن طفيل : إنه لم يكن يعرف بالضرورة رأى داروين الذى يرى أن أنواع المخلوقات متصل بعضها ببعض ، وأن ليس الإنسان إلا حلقة من هذه السلسلة .. سبقته حلقات أخرى ، إلى أن انتهت بالإنسان .

أما عند ابن طفيل فرأيان .. كل منهما يمكن أن يكون .. الأول : أنه نشأ

فى جزيرة من جزر الهند ، تحت خط الاستواء ، تولّد فيها الإنسان من غير أم ولا أب ، لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواءً وأتمها ، لشروق النور الأعلى عليها استعداداً ، فتأثرت هذه الجزيرة بأشعة الشمس ، وتخمرت الطينة الصالحة على مر السنين والأعوام ، وامتزجت القوى ، وتعددت وتكافأت . وهذا ماذهب إليه بعض الفلاسفة من جواز التولد الذاتى الطبيعى . ويرى ابن طفيل رأياً آخر : أن حى بن يقظان لم يتولد من غير أب ولا أم ، وإنما ولد من أب وأم ، وكانت أمه هى أخت الملك ، خافت من الملك فقذفته فى اليم ، وجرفه المد إلى جزيرة أخرى ، حيث التقطته ظبية كانت فقدت ابنها ، فحنّت عليه ، وألقمته حلمتها ، وأرضعته لبناً سائغاً حتى ترعرع . فهذان الرأيان يمثلان رأى الفلاسفة القدماء ، فبعضهم يرى إمكان التولد الذاتى إذا اعتدلت الطبيعة ، وتم الاستعداد من تخمر ونحوه ، وبعضهم يرى أن الإنسان لا يمكن أن يتولد إلا من إنسان) .

ويستطرد الأستاذ أحمد أمين استكمال رحلة (حى بن يقظان) فيقول : (إنه حنا على الظبية ، لأنها أرضعته لبنها ، وعطف عليها كما يعطف على أمه . وما زال مع الظباء على هذه الحال ، يحكى نغمتها بصوته ، ويحكى ما يسمع من أصوات الطير ، وأنواع سائر الحيوان .. يحاكيها فى الاستئلاف ، والاستدعاء ، والاستدفاع .

ولما قلدها فى هذه الأصوات المختلفة باختلاف هذه الأنواع ألفته وألفها ..) .

وبذلك تعلم الإنسان من تقليد الحيوانات والطيور .. إلخ .

ومن الواضح أن ابن طفيل فى رأيه الأول استخرج الإنسان من الطين المتخمّر ، وهو ما ذكره القرآن فى خلق البشر : ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر] ، واستولده فى تصوره الثانى من أب وأم على ماسنرى فى وجود الإنسان ، وهو ما لا يمكن أن يتصور فى وجود الخلق الأول ، وافتراض أن أصل اللغة هو تقليد الإنسان لما حوله من أصوات طبيعية أو حيوانية أو طيرية .. وهو أمر ليس بعيداً عما يقول به الآن كثيرون من علماء اللغة ، ولا جديد لابن طفيل إلا فى صوغ قصة الظبية ، وتطور علاقتها بالطفل (حَىّ) !! وهو مانجده لدى الغربيين فى قصتهم عن (روبنسون كروزو) الذى ألقت به الأمواج إلى جزيرة مهجورة ، وهناك نشأ وتعامل مع الكائنات تبعاً لحاجاته وضروراته ، وليس روبنسون هذا سوى حى بن يقظان .

* * *

نسوق ما نقلناه عن الأستاذ أحمد أمين على أنه مجرد خيال يعبر عن حيرة الإنسان تجاه مشكلة الخلق ، لا على أنه اعتقاد لدى المرحوم الأستاذ أحمد أمين أو غيره ، والكتاب الذى بين يدى القارئ يؤرخ بمثل هذه النقول لتلك الحيرة الفكرية التى لم تخرج عن معطيات الإسرائيليات .

لقد كان جُلُّ اعتمادنا فى عرض قصة الخليقة على استنطاق آيات القرآن ، باعتبارها المصدر الأول والأوثق الذى ينبغى اعتماده فى هذا المجال ، واستعنا بقليل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما ساعدنا على جلاء المعنى القرآنى ، وكان التزامنا دائماً بإقرار جملة من المبادئ الأساسية التى تقوم عليها القصة ، وهى :

الأرضية : فحياة آدم ، وموته ، ومـا وقع بينهما .. كل ذلك من وقائع الأرض وأحداثها .. تسليماً بحقـيقة قررها القرآن في هذا الصدد في آيات كثـيرة ، مـثل قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ﴾ [نوح] ، وقوله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾ [طه]

الترابية : فـقـد خلـق الله الخلـــق من التـراب الأرضى، وعناصـره المعروف .. لا فرق فى ذلك بين مـؤمن وكافـــر ، ورجــل وامرأة ، وهــو ما قـررته آيـات كثيـرة من مثـل قولـه : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ (٥) ﴾ [الحج] ، وقـــولـه : ﴿ أَكَـفَـرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ (٣٧) ﴾ [الكهف] ، وقـوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾[1] [آل عمران] .

البشرية : وهى حقيقة بدأ بها وجودَ الإنسان ، كما تقرر فى خطاب الله سبحانه للملائكة .. قال : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) ﴾ [ص] ، وقد كان البشـر فى نظرنا نقطة البدء فى وجود الإنسـان الذى خلق من سلالة من طين .

الربانية : بما ميّز الله به الإنسان من النفخ فيه من روحه .. ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي (٢٩) ﴾ [الحجر] ، وبما طلب منه أن يحقق الربانيـة بإخلاص العبودية لوجهـه سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] ، و ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ .. (٧٩) ﴾ [آل عمران] ، ولهذه الربـانية أبعاد فى حياة الإنسان لا نهاية لها .

وهذا هو مـا يلخص حقـيقـة الإنســان وتعريفـه بالاعتـبار الوجـودى

(١) سيأتى بيان لمضمون هذه الآية عند الحديث عن (آدم أبو الإنسان) .

والعلوى ، فهو : (مخلوق أرضى ترابى بشرى ربانى) ، أما كونه (حيواناً ناطقاً)(١) فذلك هو التعريف الذى وضعه المناطقة باعتباره ضمن حركة الحياة متميزاً عن غيره من المتحركات الأرضية .

فإذا كان الذين فكروا فى هذه القصة متفقين على هذه المبادئ الأساسية ؛ فإن اختلافهم لن يعدو أحياناً بعض التفاصيل التى لا يضر مثلها فى تصور الإطار العام للقصة ، وإن كانت هناك تفاصيل أخرى لم يتطرق إلى مناقشتها السابقون .. تفرّد هذا العمل بمناقشتها ، واستخراج نتائج حاسمة منها .. أرجو أن يرضاها القارئ الذى يتتبع خيوطها .

* * *

وهنا قصة لابد من تسجيلها ، فقد تفضل الصديق الكريم الأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط - عضو مجمع اللغة العربية فى الوطن العربى - بإهدائى نسخة مصوّرة من كتاب بعنوان (آدم عليه الصلاة والسلام) من تأليف الأستاذ بشير التركى .. أحد علماء تونس ، وكان الدكتور هيثم قد حضر الدرس الحسنىّ الذى ألقيته بين يدى جلالة الملك الحسن الثانى فى رمضان ١٤١٧ هـ عن (رؤية فى قصة الخليقة) ، وتذكر أنه رأى قبل ذلك كتاباً فى الموضوع فى تونس لأحد المفكرين المجتهدين ، فطلبه فلم يجده فى المكتبات ، ولكنه عثر على نسخة منه عند أحد أصدقائه ، فصوّر النسخة ، وتفضل بإرسالها إلىّ - جزاه الله كل خير - فقد شعرت عند تسلمى رسالة الصديق أن العلم رحم بين أهله ، وهو - أكرمه الله - قد

---

(١) لم يعجب هذا التعريف للإنسان بأنه حيوان ناطق بعض (الحيوانات الناطقة) ، ورأى أن ذلك خطأ وقع فيه الأئمة السابقون !

وصل بذلك تلك الرحم ، وأهدى إلىّ قدراً من المعرفة كنت بحاجة إلى مطالعته .

غير أنى لم أجد مناسبة لإقحام آراء الأستاذ التركى فى معالجتى للجانب العلمى من المشكلة ، فقد كنت انتهيت فعلاً من رقنها على الكمبيوتر ، ورأيت أن أقدم فى هذه المقدمة خلاصةً لما جاء عنده فى هذا الصدد .. وفاءً بالواجب العلمى ، وعرفاناً بفضل الدكتور هيثم الخياط ، وإلى القارىء موجزاً لما جاء فى ذلك الكتاب :

لقد ربط المؤلف معالجته لقصة آدم برأى له فى بلدة (المهدية) ، وهى مدينة على الشاطئ الشرقى التونسى ، وهى مركز سهل أرضى شاسع جداً ، فعمق البحر فى شرقها لا يبلغ مائة متر ، على بعد مائة وخمسين كيلو متراً ، وفى غربها لا يبلغ ارتفاع الأرض مائتى متر على مسافة مائة كيلومتر ، وقد ذكر المؤلف وصفاً تفصيلياً للمهدية يرشحها لتكون منشأ الحياة البشرية منذ ملايين السنين (ص ١٣) ، ثم ذكر فى نفس الصفحة أنه (بعد أن انقرض البشر خلق الله آدم فى الجنة ، ثم أنزله على الأرض يحمل السبع المثانى ، وهو الرصيد الوراثى المادى ، وهو المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾ [الحجر] .

والذى نلاحظه هنا أنه فصل بين آدم والبشر ، فوجود آدم كان بعد انقراض البشر ، ولا ملاحظة لنا على ارتباط آدم بالسبع المثانى ، فللمؤلف رأيه الذى يؤمن به .

وذكر فى ص ٦٤ : أهم الموجات البشرية ، وهى أربع :

الأولى : من أربعة مليارات إلى مليار من السنين ، وهى فترة عاش خلالها بشر يسمى (بشر الجنوب) (الأسترالوبتيك) ، ويمتاز بأنه أول من صنع الآلات الحجرية ، حين استطاع أن يحرك إبهامه فى مواجهة الأصابع الأربعة ، خلافاً لغيره من الحيوانات ، فاستطاع القبض على الأشياء .

والثانية : من مليار إلى مائة وخمسين ألف سنة ، وعاش خلالها جيل البتكانيروب ، أو البشر القرد ، وكان منتصب القامة ، وهو البشر الواقف، وهو الذى اهتدى إلى النار .

والثالثة : من مائة وخمسين إلى أربعين ألف سنة ، وقد عاش خلالها إنسان النياندرتال ، وهو بشر الشعور ، وفى نهاية عهده كان (آدم) الذى علّمه الله الأسماء ، فهو يتصور الأشياء ، ويرمز لها بالكلام ، وتلك هى البداية الثقافية ، التى غرز الله مكوناتها فى فطرته ، وجعلها فى خلاياه الوراثية .

والرابعة : من أربعين ألف سنة حتى الآن ، وقد عاش فيها الإنسان (الهوموسابينز) ، أو الإنسان العارف ، وهو الذى اهتدى إلى الكتابة .

ويسوق المؤلف حديثه بما يوحى بالتغاير بين الموجات الأربع ، وهو - كما سوف يلاحظ القارئ - مخالف لما أكدناه خلال بحثنا من أن المخلوق الذى أراده الله كان واحداً .. منذ قال الله سبحانه للملائكة : ﴿ **إنى خالق بشراً من طين** ﴾ إلى يوم الناس هذا ، وأن هذا البشر قد مرَّ فى مراحل من (التسوية ، ونفخ الروح الإلهى) .. فى مراحل متدرجة من حيث النضج ، وهو ما اختلفت به هويات الأجيال ، وكل ذلك فى إطار

المرحلة البشرية إلى أن كان (آدم) أول الإنسان الأول ، الذى اصطفاه الله نبياً ، فكان أبا الإنسان - لا أبا البشر - كما سيأتى .

أما تقسيمات هذه المراحل أو الموجات فهو مما تختلف فيه آراء العلماء ، ومذاهبهم ، ولكل وجهة ...

هذا هو ملخص ما كتبه الأستاذ بشير التركى خاصاً بقصة آدم ، وبقية الكتاب بحث عن مناسبة بلدة (المهدية) لتكون منشأ للخليقة منذ كانت .

* * *

وبعد ؛ فإن الموضوع خطير .. مثير ، وهو يحتاج إلى أن يقرأ بمزيد من التأمل والهدوء ، دون خضوع للأفكار المتوارثة ، والحكايات القديمة ، فأخطر شىء هو أن يقرأ المرء نصاً معينا ، ثم يهب معترضاً فى تلقائية بعيدة عن التفكير المتعمق ، فالغاية دائما هى الوصول إلى ماهو حق ، وعقل .. إن شاء الله .

وإذا كانت كتابة هذا البحث قد استغرقت خمسة وعشرين عاماً ، أو تزيد ، فإن بضع ساعات تنفق فى قراءته لا تكفى للتحاور معه ، ومناقشته ، للخروج من المأزق العقلى والثقافى الذى جرّتنا إليه الإسرائيليات .

إن هذا البحث قائم على ركيزة الآيات المنزّلة ..

وهو لم يخرج قيد أنملة عن المعنى القرآنى ..

وهو لا يتناقض فى نتائجه مع أى حديث صحيح فى السنة المحمدية .. أكان ذلك نصاً أم تأويلاً .

والهدف هو انتزاع العقل المسلم من براثن النقول الإسرائيلية المحشوة بالخرافات المنافية لكل ما هو عقل ، وعلم ، ونور .

فـ ﴿ من اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (١٠٨) ﴾

[يونس]

و ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة] صدق الله العظيم .

د . عبد الصبور شاهين

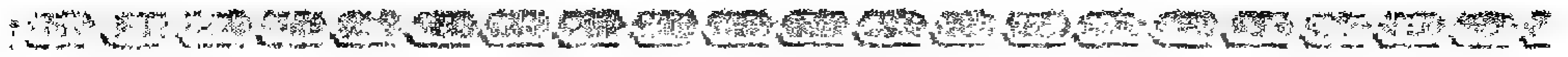
٤ رمضان ١٤١٨ هـ

٢ من يناير ١٩٩٨ م

مقدمة الطبعة الثانية

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (أبى آدم) أحدثت من الدوى ما يحدثه سقوط صخرة ضخمة فى بركة آسنة ، وانبعث من قلب البركة ـ أو المجتمع ـ أناس يتصدون للكتاب ، ولمؤلفه ، ظانين أن بوسعهم أن يخفتوا صوته ، ويخفوا أثره ، بالتشويه والتجريح ، وعلم الله أنهم لم يكونوا يملكون فكرا قادرا على استيعاب مضمون الكتاب ، بل لقد يصدق فى وصفهم ما ذكره المرحوم الكاتب الإسلامى مصطفى صادق الرافعى فى وصف بعض خصومه ، بأنه « يرى السماء الصافية فيظن أنها قبة من الزجاج ، وينظر إلى النجمة البادية فيرى أنها بيضة من بيض الدجاج » ، هكذا سمعنا خلال تلك الفترة جعجعة ، ولم نر طحنا ، وقد قذف وقع الصخرة فى البركة بعضهم إلى ساحات القضاء فى أربع زخات متواليات ، تولى كبرها رجل قانون ، ورجل تدين : (قضيتان فى المحكمة الابتدائية ، وأخريان أمام الاستئناف العادى والعالى ، فلم يلق الرجلان فى قضاياهما سوى أحكام الرفض ، وكان سندنا المهم فى تلك المواجهة الشرسة ـ ذات الأهداف الخفية ـ تقرير مستنير أصدره مجمع البحوث الإسلامية (وهو منشور أيضا فى ملحق الكتاب) ، يقرر فيه المجمع أن الكتاب لا يحتوى على ما يخالف القرآن الكريم أو السنة النبوية ، ولا ينكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو ثابتا من ثوابت العقيدة ، وإنما هو اجتهاد توفرت شروطه فى مؤلف الكتاب ، والمجمع قد يختلف معه فى بعض النتائج التى توصل إليها . « أو كما قال » .





لقد حفظت الأحكام القضائية الصادرة بشأن الكتاب ـ للعلم كرامته ، وللاجتهاد حرمته ، وللإسلام قدسيته ، وعادت الكائنات التى انبعثت من قلب البركة الآسنة إلى قاعها فى انتظار صخرة أخرى .

أما الكتاب فقد كان صخرة أردت بها أن أدق رأس الأفعى الإسرائيلية اللابدة فى الثقافة الإسلامية القديمة ، ممثلة فيما سمى بالإسرائيليات ، وهى لا تعدو أن تكون أساطير خرافية تسللت إلى الفكر الإسلامى ، وإلى عقل الإنسان المسلم ، فاعتمدها أئمة من أهل التفسير ، ومن خلال تلك التفاسير سكنت فى منطقة المسلمات من العقل المسلم ، وهى فى الواقع أفعى إسرائيلية اعتنقها كثير من الرجال ، ممن لم يعملوا عقولهم فى تحليل نصوص القرآن ، وممن لم يشعروا بالصدمة حين اتضحت من الأرقام المسافة الزمنية الهائلة بين معطيات الخرافة ، وتقديرات العلم لآماد ما قبل التاريخ .. وأبعاد الحياة البشرية .. لقد خنقت الأفعى أفهامهم حين طوقت أعناقهم .

وقد يلاحظ فى ضوء الأرقام اختلاف العلماء فى تقديرها ، وهو اختلاف يعنى أن الأزمنة السابقة التى بدأت خلالها أحداث الخلق ، سواء فى ذلك خلق الأرض ، أو خلق الحياة بأنواعها عليها ـ يستحيل تقديرها على وجه التحديد واليقين ، وإنما تستخدم الأرقام للتعبير عن المدى الهائل الذى يعجز الإنسان عن الإحاطة به ، أو إدراك مداه .. فدلالتها فى كل حال ظانية !!

إن هناك علماء مفتونين بالأرقام ، يطلقونها على سبيل التحديد ، فيقولون منها (مثلاً) إن الأرض خلقت منذ كذا .. لا منذ كذا ، وبلغ الأمر ببعضهم أن وصف السابقين عليه بأنهم جهال ، ومزيفون وبأن تقديره



هو الأدق !! .. ويحار المرء فى مناقشة مثل هذا الموقف الذى لا يحتوى دليلاً واحداً على صدق مضمونه ، ولكنها فتنة الأرقام الجيولوجية ، والواقع أن للمسألة وجهين تستخدم بهما :

الوجه الأول : حين تستخدم الأرقام فى مجال الدلالة الجيولوجية أو الأنثروبولوجية ، فاختلاف الأرقام هنا ذو دلالة على مفهوم محدد تقريبا بأنه (قبل مرحلة كذا أو بعد تلك المرحلة) . واختلاف تقديرات العلماء هنا ، مع كونها تقريبية ، ذو قيمة علمية تؤثر فى النتائج الواقعية .

والثانى : وهو ما نحن بصدده ـ لا يقصد منه تحديد زمن معين ، بل يراد به إفادة مطلق البعد فى الزمان الأزلى ، وحينئذ لا يهم أن يقال : حدث هذا (مثلاً) منذ مائة مليون سنة ، أو مائتى مليون ، أو مليار ، لأن المراد هو إفادة البعد الزمانى المطلق ، ولن يقصد به أن شيئاً ما خلق قبل آخر أو بعده . فعلم ذلك وغيره عند الله وحده .

والوجه الأول خاص بالمؤلفات المتخصصة فى البحث عن آماد الكون وأبعاده واختلاف تقديراتها وهو وارد بناء على اختلاف منطلقاتها البحثية .

أما الوجه الثانى فهو يفيد فائدة عامة فقط ، وليس يُطلب من الباحث تتبع اختلافات العلماء فى هذا الصدد أو استخدامها لاستخراج نتيجة تاريخية أو أدبية ، فشتان ما بين المجالين ، والخلط بينهما لا يعبر عن ذكاد ، بل عن غباء .

ولابد أن نلتفت أمامنا الآن ، فنحن فى مواجهة غارة إسرائيلية تحاول استخدام كل الوسائل لتخريب العقل المسلم المعاصر ، وهى لا تكف عن

ترديد الأساطير ، فى محاولة لزعزعة يقيننا بأنفسنا ، ويكفى أن يقف رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق مناحم بيجين ـ أمام الأهرامات الشامخة ، ليردد بصوت عال مزاعمه الإسرائيلية ، بأن أجداده من بنى إسرائيل هم الذين بنوا هذه الآثار الخالدة ، وهى عملية اغتصاب فاجرة ، يريد بها تجريد الأجيال المصرية من كل ميزة أو فضيلة ، هذا على الرغم من أن مناحم بيجين ، وكل من تجمعوا فى فلسطين تحت شعار الصهيونية ، لا يملكون دليلاً واحداً على ما يزعمونه إنجازاً لبنى إسرائيل فى مصر ، بل وأكثر من هذا لا يملكون دليلاً واحداً على اتصال نسبهم بإسرائيل ، أو بنى إسرائيل ، فهم مجرد لملمة تناثرت فى العالم قبل عشرات القرون ، وتجمعت فى شكل مجموعات من الشذاذ ، لتحقيق خطة استعمارية ، هى ضرب الإسلام بواسطة هذه الجيوش المرتزقة .

والعجيب أنهم يسطون على التراث الإسلامى ، ليؤلفوا ملحمة إسرائيلية تتكامل مع العهد القديم ، ليبنوا لأنفسهم وجوداً ثقافياً مؤثراً فى العقل المسلم وتاريخه ، وهذا هو شأن الغارة الإسرائيلية المستوطنة الآن فى فلسطين ، تحاول بما تثير من غبار الافتراءات والأكاذيب والإسرائيليات ، أن تلهينا عن مرارة واقعنا ، الذى ينبغى أن نحتشد لمقاومته بكل ما نملك من قوة وعزم وإصرار ، وأن نرفض كل دعاوى السلام الزائفة ، التى ليست سوى وسائل يضحكون بها علينا ، وقد تبين لنا أن السلام الذى تعنيه إسرائيل ، ومَن وراءها من أمريكان وأوروبيين ، هو عبارة عن هدنة بين حربين ، أولاهما سبقت ، والثانية آتية لا ريب فيها.

بل إننا نرى لزاما علينا أن نجاهد تلك الغارة الإسرائيلية على قلب عالمنا

العـربى ـ فى فلسطين ، نجـاهدها مـاديا وأدبيـا ، نجاهدها اسـتـيطانا ، واحتلالاً وتأثيرا فكريا وإعلاميا ، وسـياسيا واقتصاديا .. لا بد أن نقضى على هؤلاء الغزاة قبـل أن يقضوا علينا .. فقد جـاءوا إلى بلادنا قاتلين أو مقتولين وسنكون نحن قاتليهم ، وسـيكونون هم المقتولين ـ بمشيئة الله ، حتى نسوقهم إلى حصير جهنم .

لقد ابتـلى العقل المسلم المعـاصر من قبل مـدرسـتـين لهمـا وجود على الساحة ، ولـهما ضجيج مزعج ، وقد آن أوان إخماد هذا الضـجيج :

أما أولاهما فهى المدرسة الخرافية التى تتبنى الحكايات والإسرائيليات ، وأما الثانية فهى المدرسة الحرفية ، والتى تتشبث بالمأثور ، حتى ولو كان خرافـيا . وهى المدرسة التى ترفع السـيف فى وجه أى اجتهـاد ، بدعوى الخـروج على قـواعد الـلعبـة السلفـيـة ، والسلفـيـة براء من كل أشكال الأسـاطير والخرافات .

ولا مناص ـ إذا أردنا للإسلام أن يتـبوأ مكانة فى عـالم الغد ـ أن يتم القضـاء على هاتين المدرسـتـين وآثارهما ، فهنالك تحـالف بين الحرفـيين والخرافيين ، هو الذى يعوق حركة الاجـتهاد الإسلامى المعاصر ، بإشاعة الخوف فى نفوس أصحاب الرأى والاجتهاد . وكثيرا ما اختنقت آراء قيمة بإشاعة هذا الرعب مع أن الإسلام يشـجع على الاجتهاد ، ويعد كل مجتهد بالأجـر ـ ما دام لا يخـالف ثابتـا من ثوابت العـقيـدة ، ومـا دام لا ينكر معلوما من الدين بالضـرورة . فلنجتهد . ولتذهب الخرافيـة والحرفية إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم .

وهذا هو الهدف الجوهرى من إصدار هذا الكتاب ..

ولقد حقق بصدوره نتيجة قيمة حين نشط بعض الكاتبين للرد عليه ، وكتبوا مقالات ، وهو أثر حميد من آثار الكتاب ، فلو لم يصدر لما كتبوا ـ فليحمدوا الله على نعمة ظهوره .

أما مؤلف هذا الكتاب فإنه يحمد ربه على كل ضراء وعلى كل سراء ، وقد مضت فى حياتى أزمات كثيرة ، قد تتفوق فى قساوتها على ما أثاره (أبى آدم) ، ومع ذلك فقد مرت كل الأزمات ـ بحمد الله ـ وكأنها نسمات القدر .. وبسمات الرضوان .

د. عبد الصبور شاهين



القصة بين العقل والنقل



الفصل الأول

القصة والإسرائيليات

قصة الخلق – كما أوردها القرآن الكريم – مليئة بالكثير من الأسرار الخفية ، والمعانى الظاهرة ، وقد تناولها المفسرون والمنصفون من زاوية أو أخرى ، وتشابهت محاولات القدماء ، حين أخذ بعضهم عن بعض ، وحين جاء العصر الحديث بمعطياته الكثيرة فى مجالات علم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنتروبولوجيا) وعلوم الحياة ، والأحياء (البيولوجيا) وغيرها – تغيرت مفاهيم كثيرة ، وصار لزاماً على من يتصدى لكتابة شىء عن هذه القصة أن يأخذ فى اعتباره ما كشف عنه العلم الحديث من حقائق نسبية ، وما قال به من نظريات ، حتى لا يبدو متخلفاً عن موكب المعرفة المعاصرة . وذلك على الرغم من أن الذين حاولوا الكتابة فى هذه القصة حديثاً تعاملوا معها من منطلق المسلمات القديمة ، أو بمنطق اللامساس والتوفيق الحذر .

إن هذه القصة كما وردت فى القرآن الكريم تحتمل الكثير من التأويلات ، وهى حافلة بالإيماءات والإشارات ذات الدلالة التاريخية والزمنية ، ونحن هنا نستخدم المصطلح (التاريخ) بالمفهوم العام ، الذى يشمل كل ما مضى من الزمان ، محدداً كان أو غير محدد ، أى : التاريخ وما قبل التاريخ ، منذ كان الزمان بأمر الله التكوينى (كن) فكان ... ولا معقب ..

إن نظرة القدماء إلى القصة قد تأثرت بالتصور الإسرائيلى لها ، وهو الوارد فى سفر التكوين ، حيث يختزل الزمان كله إلى أقل من ثلاثة آلاف سنة تستغرق عشرين جيلاً هم المسافة بين آدم وإبراهيم ، وقد انقسمت سلسلة النسب إلى مجموعتين :

الأولى : بين آدم ونوح (وهى عشرة أجيال) .

الثانية : بين نوح وإبراهيم (وهى عشرة أجيال أيضاً) .

مع ملاحظة أن سياق النص يوحى بأن الأجيال العشرة الأولى قد بادت بسبب الطوفان ، ثم بدأت الإنسانية جولتها الثانية من سلالة نوح ، الأب الثانى لها ، من خلال أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث (ارجع إلى سفر التكوين – العهد القديم) ، ومع ملاحظة أخرى هى : أن العمر الذى عاشه آدم – مثلاً – يصل فى تقدير العهد القديم إلى حدود الجيل التاسع تقريباً ، أى : قبل نوح بجيل واحد .

لسنا هنا بصدد مناقشة معلومات العهد القديم ونقدها ، فهى ذات طابع أسطورى غالباً ، ولا دليل على خطئها أو صوابها ، سواء فى الأسماء أو فى الأرقام ، وإن كانت إلى الإحالة وعدم التصديق أقرب .

ولكن الملاحظة أن أصحاب السير قد اعتبروها من قبيل المسلمات ، فكرروها دون أدنى مناقشة ، أو حتى توقف ، وهذا هو ابن هشام فى سيرته يذكر نسب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيصل به إلى آدم عبر سلسلة العهد القديم ، فإذا بالنبى من الجيل الخمسين بعد آدم ، أى : إن المدة من آدم إلى محمد – ثم إلى زماننا هذا – لا تزيد على سبعة آلاف عام ، هى كل ما مضى من عمر البشرية ، وهو تقدير لا يتفق مع

التقديرات القائمة على الرؤية العلمية ، التى تقرب ولا تحدد .

وحسبنا أن ننظر فى تعليق محقق السيرة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد على ماذكره ابن هشام من نسب الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (روى عن عروة بين الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل) ..

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (إنما ننتسب إلى عدنان ، ومافوق ذلك لا ندرى ما هو) ، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال - لما بلغ عدنان : (كذب النسابون) مرتين أو ثلاثاً .

وقد كره مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه إلى آدم ، من قبَلِ أن هذا كله من باب التخرص والظنون التى لا يمكن أن يوثق بها[1] .

ويلف النظر فى هذا التعليق الرواية عن ابن عباس : (أن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أباً لا يعرفون) .. أى ثلاثين جيلاً ، تستغرق فى المتوسط ثلاثة آلاف سنة على الأقل .

فإذا رجعنا إلى حساب التاريخ للمدة من إبراهيم حتى الآن وجدناها تقترب من أربعة آلاف سنة وهى مدة تختلف تماماً مع ظنون النسابين ، الأمر الذى يجعلنا لا نعوِّل كثيرا على رواة الأنساب ، ولا على مصادرهم الكتابية .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١ .

النظرة العلميــة

أما النظرة العلمية إلى هذه المسألة فـإنها تضعنا فى قلب تصور آخر ، تحسب أبعاده بمئات الألوف .. بل بمئات الملايين من السنين ، وقد جاء فى موسوعة الثقافة العلمية (صفحة ٤١٧ـ٤١٨) أسماء العصور الجيولوجية ، وآمادها الزمنية ، وهى عصور مرت بكوكب الأرض ، وقُسمت إلى حقب ، بحسب معالمها السائدة – كما قررها العلماء .

حقبة الحياة العتيقة :

حقبة ما قبل الكمبرى	٧١، ١٢٥، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة
حقبة الكمبرى	٥٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة
حقبة الأردوفيشى	٣٧٥، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة
حقبة السيلورى	٣٣٥، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة
حقبة الديفونى	٣٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة
حقبة الكربونى	٢٥٠، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة
حقبة البرمى	٢٠٥، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة

حقبة الحياة المتوسطة :

حقبة الطراياسى	١٧٠، ٠٠٠، ٠٠٠	سنة

حقبة الجورى	١٣٥ ،٠٠٠ ،٠٠٠	سنة
حقبة الطباشيرى	٩٥,٠٠٠ ،٠٠٠	سنة

حقبة الحياة الحديثة :

حقبة الباليوسينى	٨٠ ،٠٠٠ ،٠٠٠	سنة
حقبة الأيوسين	٥٠ ،٠٠٠ ،٠٠٠	سنة
حقبة الأوليجوسين	٤٢ ،٠٠٠ ،٠٠٠	سنة
حقبة الميوسين	٢٥ ،٠٠٠ ،٠٠٠	سنة
حقبة البليوسين	٨ ،٠٠٠ ،٠٠٠	سنة
حقبة البلايستوسين	٥٠٠ ،٠٠٠	سنة

وكل هذه الحقب يعتبر وجود الإنسان فيها غامضاً ، ويمكن أن نتصور وجوده فى شكل مخلوق فطرى (خام) كالحيوان يستخلص إدراكات شتى من الأحاسيس المختلطة التى لا تحصى[١] .

حقبة الحياة الأخيرة :

الدور الأخير ، دون تأريخ أو تقدير ، وهو دور انحسار الجليد ، وقد شهد نباتات منزرعة ، وهى حقبة الإنسان الهوموسابينز أو الإنسان المفكر .

ومن الواضح أننا طبقاً لهذه المعلومات أمام أزمان متطاولة تحسب كما نرى بعشرات المليارات من السنين ، فقد بدأت حقبة الحياة العتيقة بمرحلة ما قبل العصر الكمبرى ، أى : منذ واحد وسبعين ملياراً وخمسة وعشرين مليوناً من السنين ، فهو أطول العصور أو الحقب وأقدمها على الإطلاق فى تقدير العلماء .

(١) اللغة – فندريس / ١٢ .

وبدأت حقبة الحياة المتوسطة بالعصر الطراياسي ، منذ مائة وسبعين مليوناً من السنين(١) .

وبدأت حقبة الحياة الحديثة مع بداية العصر الباليوسيني منذ ثمانين مليوناً من السنين ، وتأتى مرحلة حاسمة ضمن هذه الحقبة ، هى حقبة الحياة فى العصر البلايستوسينى ، وتقدر بدايتها منذ خمسمائة ألف سنة ، طبقاً لمعلومات موسوعة الثقافة العلمية .

فإذا رجعنا إلى كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) ، للمؤلفين : الأستاذ الدكتور زغلول النجار ، والأستاذ أحمد داود – وجدناه فى (صفحة ١٤٦) يقرر أن فترات الجليد فى عهد البلايستوسين دامت حوالى ستمائة ألف سنة ، فى فترات ثلاث : مائة ألف ، ثم ثلثمائة ألف ، ثم مائتى ألف ، فصلت بعضها عن بعض فترات أخرى تميزت بانحسار الزحف الجليدى ، وعندما كان الجليد ينحسر من فوق سطح الأرض كانت تكسى بغطاء خضرى مزدهر ، وهكذا .. وقد شهد ذلك العصر ظهور النباتات والغابات ، كما ظهرت الحيوانات اللافقارية فى البحار ، وانتشرت أنواع من القواقع الأرضية .

كما ظهرت بعض الحيوانات الفقارية من الثدييات ، ومنها حيوان الرنة ، والثعلب القطبى ، وانتشر بقر البحر فى الأنهار ، ومرحت الأسود والضباع فى الغابات ، وانتشرت الدببة فى الكهوف ، وبعض الحيوانات المنقرضة ، كذلك الفيل الضخم الذى يطلق عليه (الماموث) ، وحيوان الميجاثيريوم والجلبتودون والديناصورات ، وظهرت فى ذلك العصر الفيلة

(١) من العلماء المعاصرين من لا يوافق على هذه التقديرات جملة وتفصيلاً ، ويصف القائلين بها بأنهم مزيفون وكذابون .

والأحصنة والثيران بكثرة ، مع شيء من الاختلاف عما ظهر فى حقبة الباليوسين ، أى : منذ تسعين مليون سنة ، والحقبة التالية لها ، وهى (الميوسين) منذ خمسة وعشرين مليون سنة ، وهى الحقبة التى شهدت ظهور بعض أنواع من الطيور ، كالبجع وبداية طائر البطريق ، وطيور الماء التى تشبه (أبو قردان) فى العصر الحديث وغيرها ، وانتشرت الخراتيت، والغزلان والزراف ، وبعض الكلاب والدببة ، والنسانيس والقردة ، وبعض الحيوانات المفترسة كالنمور ذوات الناب .. بل إن العلماء السوفيت عثروا على سمكة ضخمة متحجرة فى باطن الأرض ، عند مدينة خاركوف ، حددوا عمرها بأنه حوالى ثلاثين مليون سنة ، وغرابة الكشف أيضاً أن قشر السمكة مازال محتفظاً ببريقه .. كشفوا عنها أثناء حفر نفق سكة حديد ، وتم نقلها إلى المتحف العلمى لجامعة خاركوف .

كل ذلك وغيره سبق ظهور الإنسان ، وقد وجدت بقاياه فى الصخور القديمة ، وقيعان البحار ، والكثبان الرملية ، ويقول مؤلفا (صورمن حياة ما قبل التاريخ) - صفحة ١٤٨ :

(وقبل المليون سنة تقريباً ، وجدت بقايا لكائنات شبيهة بالإنسان مثل جنس (أوسترالويشكس) ، والذى وجدت بقاياه فى أفريقيا ، وانتشر فى عصر البلايستوسين المتوسط عبر معظم قارات العالم القديم .

وبعد ذلك وجدت بقايا ما يعرف بإنسان بكين ، وإنسان جاوة ، وإنسان هيدلبرج ، وإنسان نياندارثال ، وإنسان روديسيا ، وإنسان سوانكومب. ويختار بعض العلماء من بين هؤلاء الأناسى إنسان هيدلبرج باعتباره الحلقة الوسطى بين الإنسان الذى يتكلم والحيوانات التى تصيح ، أما الإنسان النياندرتالى فيظهر أنه كان ذا مبادىء فكرية من اللغة الملفوظة)(١) .

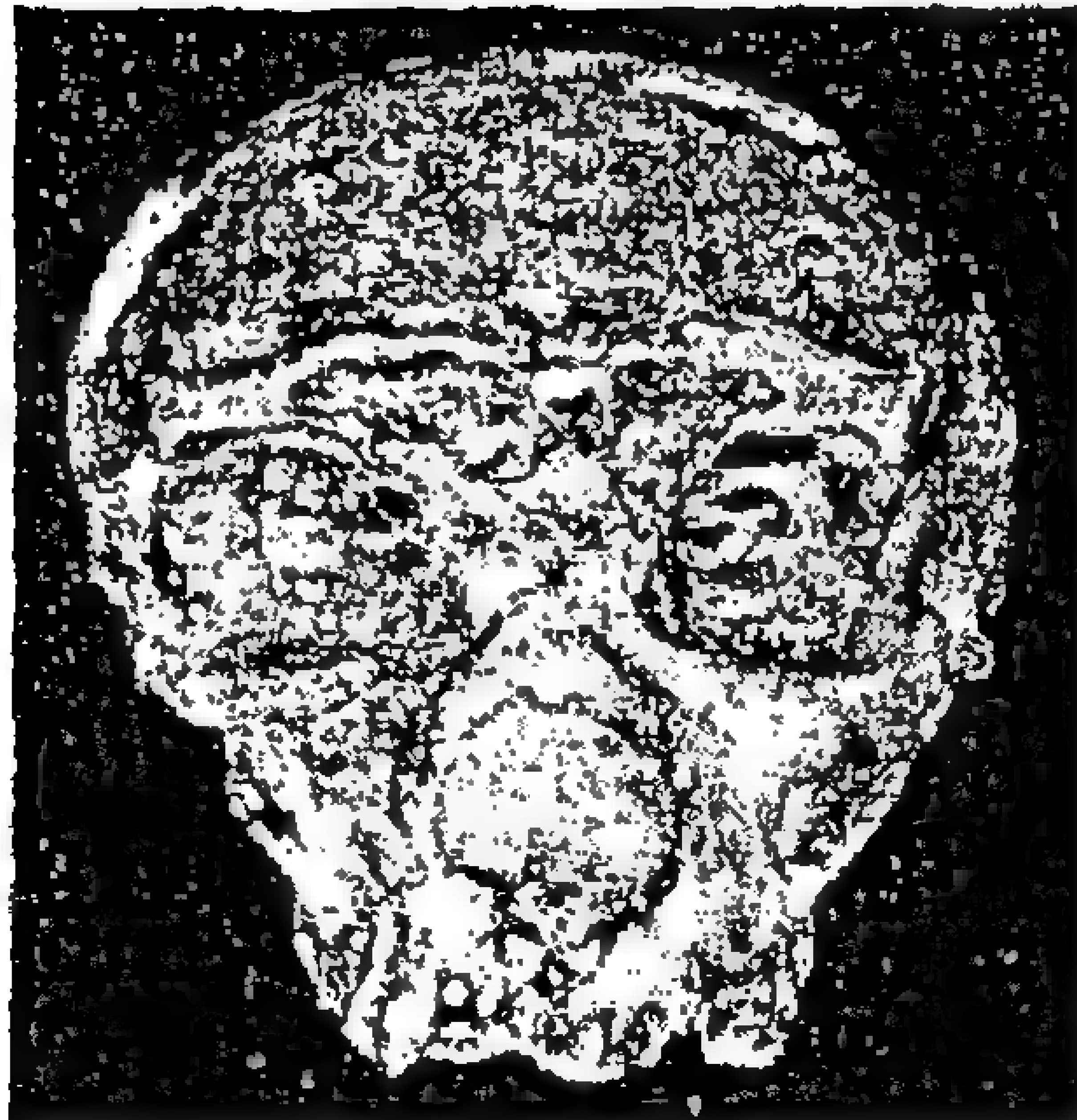
---

(١) اللغة - فندريس - تصدير هنرى برجسون .



بشر سابيان

من مائة وثلاثين ألف سنة



بشر نياندرتال

من مائة وعشرين ألف سنة

وكل هؤلاء الأناسى وجوه مختلفة لمخلوق واحد ، كان يتنقل من مرحلة إلى مرحلة فى تسوية الخالق له ، فكلما مضت مرحلة من التسوية تغيرت بعض أوصافه ، وأفرده الباحثون فى الجيولوجيا والأنثروبولوجيا بتسمية ، وقد وجدت تلك البقايا بصورة ناقصة ونادرة ، مما يجعل معلوماتنا عن هذه المخلوقات الشبيهة بالإنسان بعيدة كل البعد عن الكمال .

وأول كائن إنسى له المميزات التشريحية للإنسان المعاصر ، وله صفاته من الذكاء ، والقدرة على التعبير عن نفسه هو (إنسان كرومانيون) والذى وجدت بقاياه فى جنوب فرنسا ، فى كهوف ترك آثاره على جدرانها رسوماً لبعض الحيوانات التى اصطادها ، ويتضح منها أن هذا المخلوق تمتع بقدر من الذكاء يربطه بالإنسان الحالى .

وأقدم بقايا لإنسان كرومانيون ترجع إلى حوالى ثلاثين ، إلى خمسة وثلاثين ألف سنة مضت ، وهذه الفترة تعتبر من أقدم فترات التاريخ المسجل .

هذه النماذج التى عثر عليها من بقايا الإنسان على الأرض تمتد كما رأينا منذ ماقبل مليون سنة ، وهى تؤرخ لمسيرة هذا المخلوق حتى عهد قدره العلماء بخمسة وثلاثين ألف سنة .

وقد نشرت جريدة الوفد[١]فى (٦/١٠/١٩٩٦) أن الإنسان الأول عاش أيضاً فى جبل طارق فى عدة كهوف عثر عليها هناك ، وأن ذلك كان منذ ما يقرب من ثلاثين ألف سنة .

---

(١) قد نعتمد بعض الصحف اليومية مرجعاً ننقل عنه بعض الأخبار حين لا يتوافر لدينا مؤلف نعتمده فى توثيقها ، ومع ذلك فنحن نذكره فى إطار أنه خبر ظنى الدلالة.



بشر بكين

من أربعمائة ألف سنة إلى خمسمائة ألف سنة



بشر كينيا

مليون وتسعمائة ألف سنة

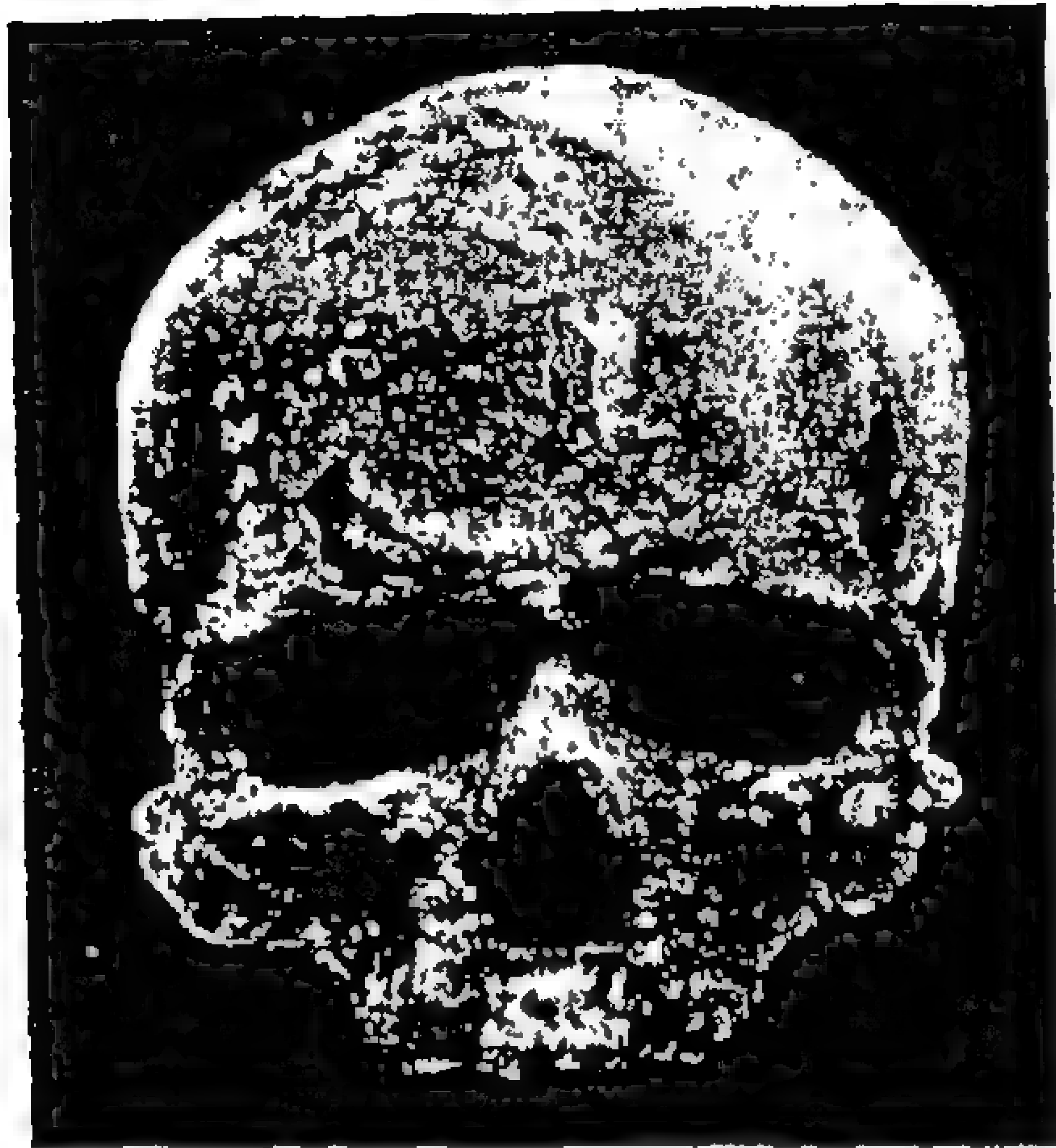
ومع ذلك فقد نفاجأ بوجود أحافير تدل على أن ظهور الإنسان كان أقدم من هذا التقدير ، فما زالت الأرض محتوية على شواهد دالة على بدء الخلق وكيفيته ، ولن يبلغ الإنسان مبلغ الحقيقة إلا إذا داوم على البحث ، واستمر فى السير تفتيشاً عن شواهدها وأدلتها ، وهو ما أمرت به الآيتان القرآنيتان :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات]

وكل ما سجله العلم من مراحل الحياة على الأرض هو ولا شك من معطيات البحث والسير فيها ، فهى خطوات فى الطريق الصحيحة ، تهدى الإنسان إلى أصله ومنشئه ، عبر تلك الآماد السحيقة .. لقد كانت تلك الآماد – ولاشك – مقدمات لخلق الإنسان .. ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] ، أى : إن خلق الإنسان كان إرادة سابقة أزلاً على وجود الأرض ذاتها ، قبل مليارات السنين ، ثم كانت الأرض ، وكان ما مر بها من عهود سحيقة يعجز العقل عن تصورها – هو التمهيد الإلهى الباهر لظهور السلالات البشرية ، الذى تضاربت الآراء فى توقيته ، فليس من هذه العهود ما يعتبر حقيقة مطلقة .. بل هى جميعاً آراء نسبية ، تتفق فى الحد الجامع بينها ، وتختلف فى العهود والحقب ، ولا سبيل حتى الآن إلى معرفة متى كانت بالضبط بداياتها ونهاياتها .

وأكبر دليل على نسبية المعلومات المدونة فى المراجع العلمية حول الإنسان ، وعصر ظهوره على الأرض (قبل مليون سنة) – ما أعلنه مؤخراً أحد العلماء الأنثروبولوجيين ، من أن وجود الإنسان كان أسبق



بشر كرومانيون

من ثلاثين ألف سنة



مما سقناه نقلاً عن موسوعة الثقافة العلمية ، وعن كتاب (صور من حياة ما قبل التاريخ) وهو خبر لم ندهش له ، ونحن نؤمن بنسبية الصدق فى معطيات العلم الحديث ، وبخاصة فى هذا المجال .

لقد نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر صباح الأربعاء (١٩٧٢/١١/٨) : (أن البروفسور ريتشارد ليكى أحد العلماء الأنثروبولوجيا - علم الإنسان) .. أعلن فى كينيا أنه تم اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ، وتعد أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول .

وقال العالم : (إن هذا الاكتشاف يمتد فى قدمه مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى الآن ، وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة ، مع عظام لساق بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ ، فى جبل حجرى ، بصحراء تقع شرق بحيرة رودلف فى كينيا) .

وقال العالم : (إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ ، وكيف ؟ ومتى ؟) .

وقد قدم ريتشارد ليكى ، وهو مدير المتحف الوطنى فى كينيا - تقريراً عن اكتشافه إلى الجمعية الجغرافية الوطنية فى واشنطن ، وقال : (.إن نظريات التطور الحالية - وعلى رأسها نظرية داروين - تفيد أن الإنسان تطور من مخلوق بدائى ، كانت له سمات بدنية شبيهة بسمات القرد ، وإن أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتصب يسير على رجلين ، وله مخ كبير - يرجع إلى نحو مليون سنة) .



هذا فى حين أن الكشف الجديد يدل على أن المخلوق الإنسانى المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائى الذى يشبه القرد ، بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف مليون عام ، وإنه يمكن على هذا الاعتبار استبعاد المخلوق البدائى الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته .

وذكرت الجمعية الجغرافية فى تعليق لها على هذا الكلام : (أن نظرية ليكى تقوم على أساس أن المخلوق البدائى الأول و اسمه العلمى (أوسترالوبثيكوس) وكان أساساً من أكلة النباتات ، قد وصل إلى مرحلة تطويرية مسدودة، بينما استطاع الإنسان الذى استخدم اللحم فى غذائه ، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية – أن يبقى على قيد الحياة) .

وأكد ليكى فى تقريره : (أنه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التى عثر عليها ، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشرى المعروف حالياً ، إلا أنها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التى عثر عليها للإنسان الأول ، وبذلك لا تتفق مع أى نظريات حالية عن تطور الإنسان) .

وواضح إذن أن الفرق الزمنى هائل بين هذا الرأى ، وما تقوله نظرية داروين . كما أن الفرق هائل أيضاً فى جوهر التصور للإنسان الأول بين النظريتين ، فهو عند داروين يمشى على أربع منذ مليون سنة ، ثم انتصبت قامته ، وعند ليكى يمشى منتصب القامة منذ مليونين ونصف المليون من السنين ، وأنه كذلك منذ كان .

فإذا رجعنا إلى ما أورده المؤلف سيد أحمد الكيلانى فى كتابه عن

(نظرية داروين بين التأييد والمعارضة - صفحة ٢١) حين قال : (وقد أذاع البروفيسور جوهانس هورزلر - العالم الذرى فى سمنتبال بسويسرا - بياناً فى مارس ١٩٥٦) نجد أنه عارض نظرية داروين بشدة ، وقال : (إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالة القرد ، وإن التجارب الواسعة التى أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً ، وبعيداً جداً) .

وأضاف إلى ذلك : (أن الهياكل التى درس عليها تؤكد نظريته ، وقد قدم البروفيسور المذكور للمتحف الطبيعى بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين سنة ، وهذا هو التاريخ الذى أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية) .

وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن فى أمريكا أن الدكتور (رويتر) المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا - قد أيد البروفيسور هورزلر فى وجهة نظره ، واعتبرت نظرية داروين بذلك رأياً لا يستند إلى أى دليل علمى ، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع ، استقلالاً تاماً ، فمنها الإنسان الذى يمشى على رجليه ، ومنها الدواب التى تمشى على أربع ، ومنها الزواحف التى تمشى على بطونها .

وإذا كان سياق الداروينية يقرر أن القردة خلقت هكذا مستقلة عن الأنواع الأخرى قبلها ، فما الذى يجعلها أصلاً لنوع الإنسان فى فرضية داروين ، على حين أن الأقرب إلى المنطق هو أن القدرة التى خلقت نوع القردة التى تمشى على أربع - قد خلقت نوعاً آخر يمشى منتصباً على رجلين ، وهو الإنسان ، وهى القدرة التى أوجدت ملايين الأنواع من المخلوقات المتحركة ، لكل نوع عالمه وقدراته ، وبدايته ونهايته ، فالكل

صادر عن قدرة مطلقة واحدة ، تماماً كما حدث القرآن عن وحدة الأصل ، واختلاف الشكل - فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. (٤٥) ﴾ [النور]

نحن إذن أمام جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة ، التى تركز كلها على تاريخ وجود الإنسان ، وأصل هذا المخلوق ، وهى كلها تؤكد نسبية المعلومات التى تضمنتها ، ولكل واحدة منها أدلتها التى تستند إليها فى تقرير جوانب التصور الزمنية والخلْقيَّة ، ولا ريب أن فى كل منها شيئاً من الحقيقة ، وأشياء من الخيال تصب فى بحر الضلال ، حفاظا على نسبية المعلومات والنظريات فى دلالتها على جوهر الحقيقة الذى يتراوح حتى الآن ما بين مليون سنة ، وعشرة ملايين من السنين .

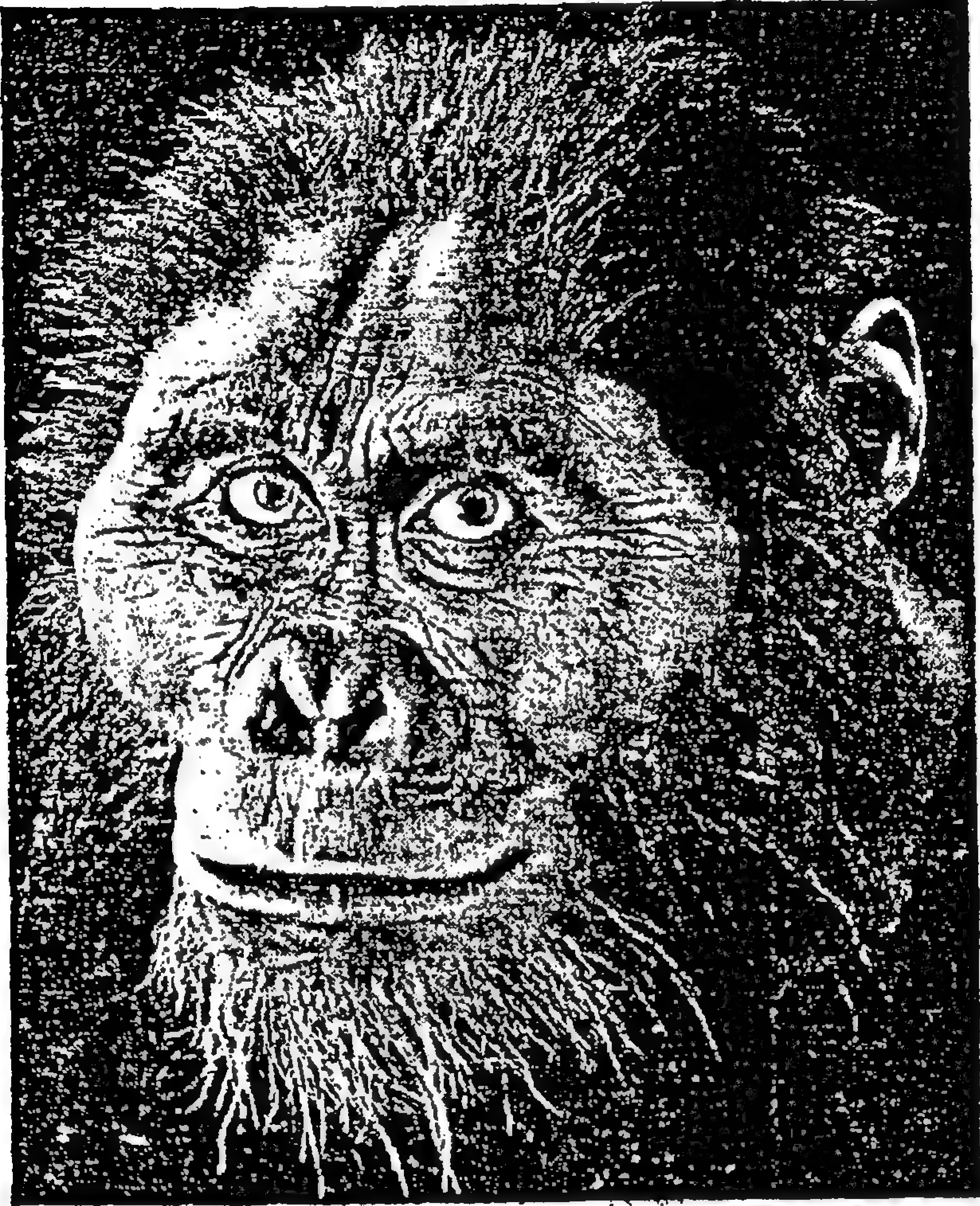
ومن أواخر ما نشرته جريدة الأهرام فى هذا الشأن ، خلال شهر يونيو ١٩٩٦ ، ما تضمنه بحث علمى آخر فى بريطانيا - قد يكون دليلاً آخر لهدم نظرية داروين القائلة بأن الإنسان أصله قرد ، أو منحدر من إحدى سلالات القردة العليا ، تحدى العلماء البريطانيون الرأى العلمى السائد بأن الإنسان الأول كان يمشى معتمداً على يديه ورجليه ، مثل الشمبانزى .

وقال العلماء فى جامعة ليفربول البريطانية : (إن الرأى الأرجح هو أن الإنسان الأول كان يسير منتصب القامة ، تماماً مثل الإنسان اليوم ، وأوضحوا أنه لو كان الإنسان القديم يسير منحنياً - كما تصور ذلك بعض النظريات العلمية - فإنه لم يكن من الممكن أن يعتدل فى قامته ، ويسير كما هو الآن أبداً) .

وأشار العلماء إلى أنهم أخذوا أحجام الإنسان القديم ومقاساته من هيكل كائن شبيه بالإنسان ، وهو المعروف باسم (لوسى) ، والذى عثر عليه فى أثيوبيا ، ويرجع إلى ثلاثة ملايين عام مضت ، ثم استخدموا الكمبيوتر فى تطوير إنسان آلى صناعى (روبوت) لكى يكون نموذجاً لكيفية تحرك (لوسى) ، وأوضح العلماء أن التجارب أثبتت أن (لوسى) - وهى أنثى - لم تكن لتتطور وتمشى منتصبة القامة بعد ذلك ، وقال الدكتور روبن كرمبتون ، أحد المشاركين فى البحث : إن ذلك يعنى أن النظريات العلمية التى تظهر الإنسان القديم يمشى فى وضع مُنْحَنٍ فى حاجة إلى إعادة كتابة ، واشار إلى أنه ما إن بدأ الإنسان يقف على قدمين، فإنه كانت هناك ضغوط قوية لكى يسير ويقف منتصباً .

وأوضح أن المشى بشكل منتصب يساعد الإنسان على التنفس بشكل جيد ، ومشيراً إلى أن قرود الشمبانزى عندما تمشى منحنية فإنها تسير لوقت قصير للغاية ، لأن هذا الوضع لا يساعدها على التنفس الصحيح .. بل يصيبها بالإجهاد . وقال : إن هذه القرود بعد خمسين خطوة فقط من المشى فى انحناء تسارع بالجرى ، بعكس الإنسان القديم الذى يظهر علم الآثار أنه كان يمشى لأكثر من مائتى كيلومتر ، وهذه المسافة لا يمكن أن تتم وهو فى حالة انحناء .

وهذا الرأى يلتقى فى تقديره الزمنى تقريباً مع تقدير البروفيسور ليكى بناء على جمجمة كينيا ، غير أن مرتكز الاستدلال لم يكن البحث فى عمر الأحفورة ، بل قام على مناقشة القدرة على المشى منتصباً أو منحنياً لدى القردة والإنسان ، كيما يصل فى النهاية إلى رفض نظرية داروين ، بأسلوب التقنية المعاصرة .



لوسى ـ حطمت النظرية الداروينية

٣,٢ مليون سنة

وغنى عن البيان أن كل الجهود العلمية حتى الآن تنصب على معارضة داروين فيما ذهب إليه ، وأن ما قدمناه لم يكن سوى بعض العينات التى جهد فيها العلماء ليدحضوا مذهب النشوء والارتقاء .. حتى إننا نستطيع أن نقول : إن نظرية داروين قد صارت لكثرة ما تعرضت له من نقد - مجرد مقولة هشة .. لا تعنى شيئاً فى مجال البحث عن أصل الإنسان ، وإن قدمت الكثير فى مجال (البيولوجيا) أو علم الأحياء .

وتبقى حقيقة واحدة ، نكررها دائماً ، هى نسبة التقديرات العلمية التى حاولت التأريخ لبداية وجود الإنسان على الأرض فى أى شكل من أشكال الوجود .

لقد سقطت إذن فكرة (التطور الخالق) ، ونقول : (فكرة) ، ولا نقول : (نظرية) ، ورغم أن الناس قد فتنوا بهذا النظرية لعدة عقود من الزمن ... سقطت بكل ما ارتبط بها من أفكار أخرى ، وانتصرت حقيقة (الخلق المستقل) التى قررها الدين ، كما أكدها العلم ، فما كان الإنسان إلا بشراً منذ كان ، وما كان القرد إلا قرداً ، وما كانت السمكة إلا سمكة فى عالمها المائى ، وكل ذلك لم يكن إلا طبقاً للمشيئة الإلهية المطلقة ، وإنجازاً للقدرة الكُنّية(١) .

وهنا يطرأ سؤال ، ربما يبدو سابقاً لأوانه فى سياق هذا البحث ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشرية إرادة إلهية وأمراً إلهياً واحداً على الأرض ، أرادته القدرة الإلهية ؟ وتابعته فى مراحله المتطاولة ؟ أو كان خلقاً متعدداً متقاطراً على الساحة الأرضية عبر الوجود الزمنى الهائل؟

---

(١) نسبة نقول بها أخذاً من قوله تعالي: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس] .

وكان آدم أحد هذه المراحل .

ذلكم هو ما سنحاول بيانه فيما يلى من الحديث .

غير أننا نقرر هنا رأياً يراودنا ، ونحن نخوض هذا اليم ، أو الخضم من المعلومات والتقديرات المتراوحة بين سبعة آلاف سنة ، وعشرة ملايين من السنين ، والذى نريد أن نقوله إجمالاً : **هو أن الخالق العظيم خلق هذا الكون الهائل حين قال : (كن) فكان .**

أجل .. كان ما كان ويكون وسيكون .. كان الماضى والحال والمستقبل ، كانت الدنيا بكل مكوناتها ، وكانت الآخرة بجنتها ونارها وخلودها ، وما يتضمنه ذلك من بعث وحشر وحساب .

كان كل ما كان ، وما يكون ، وما سيكون ، فى إطار من الزمان المطلق ، والمشيئة المطلقة ، والانكشاف المطلق ، فليس - بالنسبة إلى الخالق - قيود من الزمان ، أو المكان ، أو أية عوامل أخرى ، أما الإنسان فهو نقطة فى بحر الحقيقة .. نقطة محكومة بالزمان والمكان ، وحدود الإدراك - كما أراده الله .

وقد خلق الله هذا الإنسان ليكون سيداً فى الكون الفسيح ، الذى يتزايد ضخامة واتساعاً أو امتداداً ، دون توقف .. بأسرع من سرعة الضوء .

ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهذا الكون نهاية ، كما أن له بداية ، وحين تحين هذه النهاية سوف تتغير معالم الكون كله كما قال سبحانه ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨)﴾ [التكوير] ، وقال تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] . هل يعقل أن يكون هذا الملك والملكوت من أجل خليقة لا تدوم أكثر من عشرة آلاف سنة؟! أو بتعبير أدق : لا تدوم أكثر من عشرة أيام - بحساب الزمان الإلهى الذى يقرر : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج].. إلخ ... !!

وهب أن ذلك الزمان امتد إلى مليون سنة ، أو حتى عشرة ملايين ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون بضعة آلاف من الأيام الإلهية .. ولله المثل الأعلى .

إن ملك الله عظيم ...

وإن شأن الله أعظم ...

ولهذا الإله - تقدست أسماؤه ، وتعاظمت آلاؤه - سجدت الأجساد والأرواح ، وعنت الوجوه والعقول ، ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] ، ومن أجل هذا كان موعد النهاية سراً مكنوناً لا يعلمه إلا هو .. إنه موعد الزلزال الكونى الذى يضع النهاية لرحلة ملايين السنين .. ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج] ، ويكفى أن نردد هنا قول الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج] .

الإنسان بين العلم والقرآن

مرة أخرى نكرر ، ولا نمل التكرار :

لابد أن نسلم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة فى أغلب الأحيان بل هى رُؤى نسبية ، من حيث إن العقل الذى يتوصل إليها مُرْتَهِنٌ بقيود من البيئة ، والزمان ، والقدرات الذاتية ، والدلائل المتاحة .. إلخ .

أما القرآن ، وهو الكلمة الإلهية النهائية فى الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى ـ فإنه ولا شك يقدم للعقل الإنسانى الحقائق النهائية فى الموضوع . ولكن الأجيال تتفاوت فى فهم النص المقدس ، حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الدينى ـ حتى الآن من النصوص ـ مناقضاً للعلم ، ولا سبيل إلى تحقيق اللقاء بينهما .

ونحن ـ بادئ بدء ـ نقرر أن التناقض بين القرآن ، وما توصل إليه العلم من حقائق نهائية ـ مستحيل ، وإنما يأتى التناقض من جهة أن العلم لم يستقر بعد على بر الحقيقة الكاملة ، بل ما زال يدور فى إطار النظريات الظنية الدلالة ، إلى جانب أن التناقض قد يأتى من ضعف التفكير الذى تتسم به معالجة الأفكار .

ولننظر ـ مثلاً ـ إلى الجمود الذى اتسم به التفكير الدينى حين توقف عند القول بالبداية الآدمية للحياة على الأرض ، وهى بداية قدرت فى حدود عشرة آلاف عام . وهو تقدير متواضع فى مقابل القول بأن بداية الحياة الإنسانية تراوحت ما بين مليون سنة ، وعشرة ملايين من السنين .

أى بَوْنٍ شاسع بين التقديرين ؟ وهل من سبيل إلى لقاء بينهما ؟

نحن نرى أن ذلك ممكن من خلال فهم واع للنصوص القرآنية .. فَهْمٍ يخرج عن المذهب التقليدى الذى التزمت به التفاسير كلها ، ويسعى إلى استنطاق النظم القرآنى ، ما دام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن .

ولسوف نحاول السير مع القرآن فى حديثه عن الإنسان والخلق ، منذ الآيات الأولى التى استهل بها الوحى المحمدى ، وسيرا مع هذا الوحى إلى شاطئ الحقيقة القرآنية .

لكن ـ قبل أن نشرع فى هذا العرض نحب أن نقدم نوعاً من الأحافير ، أو الأعاجيب التى أشارت إليها المراجع العربية ، وهى ذات دلالة ومغزى ، يخدم سعينا لتحقيق إمكان اللقاء بين العلم والقرآن ، وإن غلب عليها طابع المبالغات ، وأسلوب الأساطير .

الفصل الثالث

نظرة القدماء إلى وجود الخليقة

إذا كان علماء السلف قد اتفق جمهورهم على أن آدم هو أول الخليقة ، وأول ما خلق من تراب - فإن بعضهم قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فتصوروا لهذه الخليقة وجوداً ممتداً فى أعماق الزمان ، قبل آدم ، ربما إلى ملايين السنين ، والمهم أن أحداً ممن قال بهذا المذهب لم يلق نكيراً من الفريق الآخر .. بل عاشت الآراء المتناقضة جنبا إلى جنب ، حتى تلقيناها ورأينا كيف أنار الله بصيرة الأقدمين فامتدت رؤيتهم إلى أعماق الغيب قبل التاريخ على هذه الأرض ، وتنوعت رؤيتهم تبعاً لاختلاف التخيلات ، وما نحسب أنهم اعتمدوا على شواهد مادية .. بل هى محض تخيلات هداهم إليها تأملهم المنطقى فى أحوال الدنيا .. (ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء : أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خِلَق مختلفة ، وهى أنواع :

منها ذوات الأجنحة ، وكلامهم قرقعة .

ومنها ما له أبدان كالأسود ، ورؤوس كالطير ، ولهم شعور وأذناب ، وكلامهم دوىٌّ .

ومنها ما له وجهان ، واحد من قِبَله ، والآخر من خلفه ، وله أرجل كثيرة .

ومنهـا ما يشـبه نصف الإنسـان بيدٍ ورِجلٍ ، وكـلامهم مـثل صيـاح الغرانيق(1) .

ومنهـا ما وجـهه كـالآدمى ، وظهره كـالسلحفـاة ، وفى رأسه قـرن ، وكلامهم مثل عَوِى الكلاب .

ومنها ما له شعر أبيض ، وذنب كالبقر .

ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال .

ويقال : إن هذه الأمم تنـاكحت وتناسلت حتى صـارت مائة وعـشرين أمة . (المستطرف / ٣٩٨) .

هذه صورة من تفكير الأقـدمين أو تخيلاتهم عن الماضـى السـحيق قبل هذه الخليقة ، فقد لفـقوا أشكالاً من المخلوقات لا دليل على أنها وجدت إلا فى الاحتمال الخيالى ، ومع ذلك يبقى ـ بعـد استبعاد ما لا دليل عليه من الأشكال ـ أن الأرض كانت معمـورة قبل آدم ، سواء بمثل تلك الأصناف ، أو بأصناف أخرى كالديناصـورات ، أو الماموث أو بأوادم آخرين قبل آدم ـ أبينا ـ على مـا قـرره بعض العلمـاء ، أى : إن آدم لم يكن أول مـخلوق عاقل على هذه الأرض .

ومن المؤكـد أن أمما كثـيرة من المخلوقـات كانت مـوجودة قبل ظـهور الإنسان ، كـأمم الطير ، والحـيوان ، والنبات ، وهى كلـها أمم بنص الآية الكريمة : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام] ، وإذا كان النص صريحاً

---

(1) الغـرنوق : طائر مـائى أبيض طويل السـاق ، جـمـيل المنظر ، له قنزعـة ذهبـيـة اللون ، والجمع ، غرانيق .

فى دواب الأرض والطير ـ فإن النبات فى نظر العلماء كائن نامٍ ، على اختلاف أشكاله وفصائله ، والآية الكريمة تشير إلى حقيقة مذهلة حين تأتى فاصلتها : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام] ، وفى ذلك جملة من المناقشات حفلت بها كتب التفسير .

أما عن اهتمام العلماء بالتفتيش أو بملاحظة ما يجدون صدفة فى الأرض ، ومتابعة آثار الأحياء فيها ، واستدلالهم بشواهدها على معالم الحياة البشرية وعهودها السحيقة ـ فذلك أمر لم تتوافر أدواته للأقدمين ، ولا تهيأت أسبابه إلا فى عصرنا الحديث مع تطور علوم الأرض (الجيولوجيا) والإنسان (الأنثروبولوجيا) ، والأساطير (الميثولوجيا) ، والتحليلات الكربونية .. وغيرها .

ولكن كان للأقدمين فكرة عن الإنسان القديم ، ولم تكن أفكارهم تذهب فى تقدير تاريخ الحياة على الأرض إلى أبعد من حديث القرآن عن آدم ونوح ، وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط .. إلخ .

وهذه عهود قريبة نسبياً كما سبق أن قررنا ، وهى لم تتجاوز ثلاثين ألف عام ، وهم معذورون قطعاً فيما ذهبوا إليه .

وقد اعتمد بعضهم على مشاهداته لقطع من العظام وبقايا هياكل عظمية، حاولوا تفسيرها ووصفها بقدر ما رزقوا من القدرة على تصور حياة الماضين وأوصاف هيئاتهم الجسمية ، وهى تبعد كثيراً عن الواقع الذى تصفه الأحافير التى عثر عليها العلماء فى عصرنا ، ولو أن هذه الأحافير التى وصفها السلف ـ وجدت الآن لتغيرت فكرتنا عن الإنسان ، فى عهوده السحيقة ، لكن المشكلة أن شيئاً من هذه الأحافير لا وجود له

الآن ، ولئن صح أنه وجد ، فهو وجود مقرون بالمبالغة والتزيد ، حتى حجبت الحقيقة ، وضاعت معالمها ضياعاً نهائياً .

ولنذكر عينة من هذه الأخبار ، يذكر مؤلف كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) : (قال الشيخ عبد الله ، صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى باشقرد ، فرأيت قبور عاد ، فوجدت سِنٍّ أحدهم طوله أربعة أشبار ، وعَرْضُه شبران ، وكان عندى فى باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ، ووزنها ألف ومائة مثقال ، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعاً ، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار ، كلوح الرخام) .

وقد يكون هذا الوصف من باب المبالغة المسرفة ، لأن مشاهدة المومياوات المتحفية التى مضى عليها خمسة آلاف سنة مثلاً ـ تبين لنا أن حجم الإنسان كان بنفس الحجم الحالى ، دون أدنى علاقة بما يصفه الشيخ عبد الله فى كتابه المشار إليه ، ولذلك يبدو لنا أن للخيال دوراً فى تضخيم حجم ما يزعم رؤيته من بقايا قوم عاد ، وربما كان ذلك من باب (الحواديت) التى جاء منها ألوان وأشكال فى كتاب (ألف ليلة وليلة) . أو ربما كان ما وجدوه بهذا الوصف بقايا حيوان هائل ؛ كالديناصور مثلاً ، أو الأفيال الضخمة ، التى تقاس أنيابها بالأشبار ، وزعم الواصف أنه يصف إنساناً من قوم عاد .

ويستمر الشيخ فيقول : (ولقد رأيت فى بلغار ، سنة ثلاثين وخمسمائة ـ نسل عاد رجلاً طويلاً ، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً ، كان يسمى دنقى أو ديقى ، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه ، كما يأخذ

الولد الصغير ، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ، ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة ، وبيضة عادية لرأسه ـ كأنهما قطعة من جبل ، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا ، لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خَيِّراً متواضعاً ، كان إذا لقيني يسلم عليّ ويرحب ، ويكرمني ، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته ، رحمة الله عليه ، ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها ، إلا حمام واحد ، وكانت له أخت على طوله ، ورأيتها مرات في بلغار ، وقال لي قاضي بلغار ، يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان أقوى أهل بلغار ، قيل: (إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه ، فمات من ساعته) (المستطرف / ٣٩٨) .

وقد تأثرت آراء الأقدمين من العلماء بما ورد في العهد القديم من أساطير عن الإنسان القديم ، ولا سيما قصة عوج بن عنق ، وهي أحد معالم الحياة القديمة التي كانوا يتسلّون برواياتها ، وقد كان المستمعون يبهرون بتفاصيلها ، ويتصورون أنها تعبر عن واقع شهدته الأجيال القديمة .

(روى عن وهب بن منبه في عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم ، إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال : إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير ، وعَمَّرَهُ الله دهراً طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام ، وكان جباراً في أفعاله ، يسير في الأرض براً وبحراً ، ويفسد ما شاء ، ويقال : إنه لما حصرت بنو إسرائيل في التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على

قدرهم ، واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً فى منقاره حجر مدور ، فوضعه على الحجر الذى على رأسه ، فانثقب من وسطه ، وانخرق فى عنقه ، وأخبر الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصا فقتله ، ويقال : إن موسى عليه السلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع ، وقفز فى الهواء عشرة أذرع وضربه فلم يصل إلى عرقوبه . فتبارك الله أحسن الخالقين) .

والعجيب أن يزعم راوى الأسطورة أن عوجاً عاش ـ وهو الحفيد لآدم ـ حتى عهد موسى ، أى : أكثر من سبعة آلاف سنة ...؟؟

وتمضى الأسطورة فتحكى عن عنق أم عوج فتقول : (عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام ؟؟) ، وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوهة الخلقة، لها رأسان ، وفى كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين) ، وقال على ابن أبى طالب : (هى أول من بغى فى الأرض ، وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصى ، واستخدم الشياطين ، وصرّفهم فى وجوه السحر . فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها ، وذلك بعد ولادة عوج بسنتين) .

إننا لم نأت بكل ما قيل عن عنق وولدها عوج ، وقد اختصرنا شيئاً من أخبارهم لكى نظهر ما بلغته الأساطير من السيطرة على عقول الناس قديماً ، وحين تأتى الأساطير فى كتاب مقدس مثل التوراة ـ فإنها تستبد بعقول الأتباع ، وتحجب عن أبصارهم بصيص العقل ، وهو ما غرقت فيه عقول كثيرين طوال قرون عديدة .

حـــديـث القــرآن

جدير بنا أن نـذكر السور القـرآنية التى تعـرضت لقصــة الخلق ، وما يتصل بــها ، مرتبـة حسب النزول ، لنتــابع من خلال هذا التــرتيب تدافع معانى الوحى القـرآنى ، ومنهجه فى سوق الأحداث والحقـائق ، كما أراد الله للإنسـان أن يتعلمها ، وقد جاء الترتيب هكذا :

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظـــات
١	العلق	الإشـارة الأولى للإنسـان
٤	المدثر	الإشـارة الأولى للبشـر
٧	الأعلى	﴿ الذى خلق فسوى ﴾ (لأول مرة)
٢٧	التين	إشـارة عامة لخلق الإنسـان ﴿ فى أحسن تقويم ﴾
٣٠	القيامة	الذكر والأنثى ـ نطفة من ﴿ منى يمنى ■ ثـم كـان علقـة فـخلق فسـوى ﴾
٣٢	المرسلات	إشـارة إلى الماء المهين ، والقرار المكين
٣٣	ق	إشـارة إلى حضور الله فى خلقه

ملاحظـــات	اسم السورة	رقم السورة حسب النزول
إشـــارة إلى مـــادة الخلق فى الـصلب والتـرائب والماء الدافق الذى يخـرج من بينهما .	الطارق	٣٥
قـصـة الخلق والملائكة وإبـليس للمـرة الأولى (دون ذكر آدم)	ص	٣٧
الخلق والتصوير ثم قصة آدم والملائكة وإبليس - (آدم يذكر للمرة الأولى)	الأعراف	٣٨
﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾	يس	٤٠
الماء والبشر ، والنسب والصـهر.	الفرقان	٤١
﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ﴾	فاطر	٤٢
﴿ أو لا يذكـر الإنسـان أنا خـلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾	مريم	٤٣
﴿ منها خلقناكم وفـيها نعيـدكم ومنها نخرجكم تارة أخـرى ﴾ / آدم وحياته الأرضية	طه	٤٤
اعتـراض إبليس على السجـود للطين ، وحوار بين الله وبينه .	الإسراء	٤٩

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظـــات
٥٣	الحجر	الخلق من صلصال من حمأ مسنون إلى آخر القصة.
٥٤	الأنعام	إشارة إلى الخلق من الطين لا شك فى هذا .
٥٥	الصافات	إشارة إلى الخلق من الطين اللازب.
٥٩	غافر	إجمال مراحل الخلق والشيخوخة.
٦٨	الكهف	علاقة التراب بالنطفة ﴿ ثم سواك رجلاً﴾
٦٩	النحل	﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾
٧٠	نوح	الأطوار ، والإنبات من الأرض والعودة إليها.
٧٢	الأنبياء	الحياة من الماء﴿من الماء كل شيء حى﴾
٧٣	المؤمنون	تفصيل مراحل الخلق ﴿ من سلالة من طين ﴾
٧٤	السجدة	﴿ بدأ خلق الإنسان من طين ■ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾

رقم السورة حسب النزول	اسم السورة	ملاحظـــات
٨١	الانفطار	﴿ خلقك فسواك فعدلك ﴾
٨٣	الروم	الخلق من تراب ثم الانتشـار على الأرض بشراً .
٨٧	البقرة	الخلافة والسجود من الملائكة والتمرد من إبليس.
٩٣	النساء	الخلق من ﴿ نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾
٩٨	الرحمن	الخلق والبيان - ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ خلقه فعلمه فصار إنساناً
٩٩	الإنسان	﴿ حين من الدهر ﴾ هو الماضى البشرى ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾
١٠٤	النور	﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ ، وأشكال الخلق
١٠٥	الحج	تقرير كامل ونهائى عن خلق الإنسان ومراحله.
١٠٨	الحجرات	ذكر وأنثى - شعوب وقبائل - تعارف : حضارة.

لقد بدأ القرآن ومضته الأولى بالآيتين الكريمتين : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق] ، وهى بداية رائعة ، تتضمن تعريف الله سبحانه وتعالى لذاته ، وهو يخاطب مصطفاه محمداً خطابه الأول ، ولتحقيق هذا الغرض يذكر من صفاته الحسنى صفة (الخالق) ، وليس دون هذه الصفة إمكان للتعرف ، وفى الحديث القدسى : (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبى عرفونى) ، وبدهى أن يتعرف المخلوق على خالقه ، سيَّما وهو يخاطبه ، ويعرفه بنفسه ، ويزوده بأدق المعلومات عن أصل الصنعة : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، وهى معلومة موضوعية خالصة .

وبدهى أيضاً أن يثير هذا السؤال فى نفس المخاطب (محمد) أشواقاً إلى معرفة لا نهاية لها ، وتطلعاً إلى إدراك العلاقة بين (العلق) فى مهانته ، وقلة شأنه ، و (الإنسان) فى مهابته وعظم شأنه ، فى شخص المخاطب الأول بهذا الكلام (محمد المصطفى) صلى الله عليه وسلم .

ويأتى بعد ذلك الحديث القرآنى الثانى عن (الإنسان) فإذا هو لا يذكره بلفظه .. بل يستخدم لفظاً آخر يدل عليه ، هو (البشر) ، وذلك فى الصورة الرابعة من التنزيل العزيز ، صورة (المدثر) ، وترد فيها لفظة (البشر) أربع مرات فى الآيات : (٢٥) ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، و (٢٩) ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ ، و (٣١) ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾ ، و (٣٦) ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) ﴾ .

ولا ريب أن مدلول الكلمة فى الآيات الأربع يعنى المخلوق المخاطب بالآيات المنزلة من الوحى ، أى : الإنسان فى عمومه ، ثم لم ترد كلمة

(البشـر) بعد ذلك فى جـملة من السور بتـرتيب النزول ، حتـى السورة السادسـة والثلاثيـن ، وهى سورة القـمر ، وذلك فى سـياق قصـة النبى صالح مع قومه ثمود ، حين قال قائلهم : ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ .. (٢٤)﴾ [القمر]

بيد أن الإشـارة التى تعتبـر إضافة إلى المفـهوم الأول للخلق باعتـباره المرحلة الأولى ـ جاءت فى السورة السـابعة (فى ترتيب النزول) ، وهى سـورة الأعلى ، فذكـرت المرحلة الثـانية فى إيـجاد الخلق ، وهى مـرحلة التـسـوية ، فـقـال تعـالى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾ [الأعلى] ، والتسوية عمل إلهى سوف يرد ذكره باعتباره دائماً الخطوة الثانية فى بناء هذا الخلق .

والمذكور هنـا هو مطلق الخلق ، ومطلق التسـوية ، دون ذكر لمحلهـما ، وهل هو البـشر ، أو الإنسـان ، لكن السـياق يصـرف العـبارة إلى بيـان ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الذى أشارت إليه السورة الأولى .

ثم جـاء ذكر (الإنسـان) فى سورة التـين ، وهى السـورة السابعـة والعشرون نزولاً ، وذلك فـى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)﴾ [التين] ، والإشـارة هنا إلى (الإنسان) الذى خلق من علق ، وعلمه الله ما لم يكن يعلم ، فانقسم هذا الإنـسان إلى مستوى رفيع ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ، ومستـوىً وضيع ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ، وهو وصـف للواقع الذى يخـاطبـه الوحى القـرآنى فى مكة : أناس آمـنوا فـارتفـعـوا ، وأناس كفروا فاتضعوا .

ثم يعود القرآن إلى خلق الإنسان فى سورة القيامة ، وهى السورة الثلاثون نزولاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة] ، وفى هذه الآيات إشارة إلى المرحلة السابقة على : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ، وهى مرحلة النطفة من المنى يقذفها الرجل فى رحم المرأة ، لتصبح من بعد علقة يتخلق منها الذكر والأنثى .

وتضمنت الآيات ـ مما أدركه العلم الحديث ـ إشارة دقيقة إلى أن تحديد نوع الجنين ، ذكراً كان أو أنثى ، يتوقف على منيِّ الرجل ، لا على بويضة المرأة .

وهكذا أفادت هذه الآيات مزيداً من المعرفة بعملية الخلق وتفسيره ، فهى فى الحقيقة بيان لما أجمله النص الأول فى سورة العلق .

وكان حرص القرآن فى تلك المرحلة الأولى على تأكيد العلاقة بين الحياة والموت والبعث ، فهو فى آيات القيامة يختمها بقوله : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾ [القيامة] ، وهو فى السورة التالية لها ، سورة المرسلات (الثانية والثلاثين نزولاً) يعيد هذه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] ، وهو هنا يصف (المنىّ) المذكور فى سورة القيامة بأنه (ماء مهين) ، ولكن القدرة المقدرة هى التى جعلت هذا الماء إنساناً سوياً .

ونزلت بعد ذلك سورة (ق) وهى السورة الثالثة والثلاثون ـ لتفيد

حضور الله فى نفس الإنسان : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق] ، فكيف يفلت الإنسان من قبضة الله ؟؟

ثم يأتى النص فى سورة (الطارق) ليضيف مزيداً من المعلومات عن الماء الدافق (المنى) الذى يخرج من بين الصلب والترائب ، وهى معلومة لم تكن معروفة حتى عصرنا ، و (الطارق) هى السورة الخامسة والثلاثون نزولاً .

ثم نزلت سورة (ص) تذكر قصة الخلق لأول مرة ، وهى السورة السابعة والثلاثون نزولاً ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص] .

هذا النص القرآنى يتضمن لأول مرة أساسيات القصة ؛ قصة الخلق ، من مبدئها إلى منتهاها ، وكل ما جاء بعد ذلك من نصوص القران متحدثاً عن هذه القصة - يضيف بعض التفاصيل التى تثرى جوها ، وتوضح بعض غوامضها .



والأساسيات التى نقصدها فى القصة هى :

١ – إخبار الله للملائكة بأنه سيخلق البشر .

٢ – خلق البشر من طين ـ التسوية ـ النفخ من روح الله ـ الإنسان .

٣ – أمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود للمخلوق عند استوائه واكتماله .

٤ – سجود الملائكة أجمعين .

٥ – رفض إبليس للسجود استكباراً .

٦ – ادعاؤه الخيرية على هذا المخلوق بخيرية النار على الطين .

٧ – طرد إبليس وإمهاله إلى يوم الدين .

٨ – توعد إبليس بغواية بنى آدم ، إلا المخلصين .

٩ – وعيد الله بجهنم لمن اتبع إبليس .

هذه الأساسيات تتكرر فى جميع المواضع الأخرى فى السورة التالية ، ولكنها تزيد بعض التفاصيل المثرية ـ كما قلنا ـ وهو ما نلاحظه مثلاً فى السورة التالية نزولاً : السورة الثامنة والثلاثين ، وهى سورة الأعراف .

غير أننا نلاحظ بداية أن القصة فى سورة (ص) لم تتضمن ذكر آدم .. بل اقتصرت على الإشارة إلى أن المخلوق ـ موضوع الحديث ـ هو (بشر) بحسب ، ثم جاءت سورة الأعراف لتذكر آدم للمرة الأولى فى الوحى القرآنى ، فكان ذلك تفصيلاً بعد إجمال ، ومع ملاحظة أن السورتين متتاليتان ، ولكى نعرض تفاصيل القصة نتابع مناقشة كل أساسية على حدة .



الفصل الخامس

أولا : إعلام الملائكة

قول الله سبحانه وتعالى للملائكة : ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا﴾ ، وهى عبارة تحمل كثيراً من المعانى ، ذلك أن الآية تبدأ بعبارة : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ ، فهى تستخدم لفظة (الرب) مضافة إلى ضمير المخاطب ، وهو : (محمد ﷺ) ، على نسق ما جاء فى الخطاب الأول : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ، وهى إضافة تقرب النبى من حضرة ربه ، وتدنيه من جلاله ، وهو ما جرى عليه الوحى فى السور الأولى بشكل عام .

لكن .. كيف قال (ربك) ؟ وكيف تلقت الملائكة هذا القول ؟ ذلك ما لا سبيل إلى إدراكه ، وإن كان هنالك سبيل إلى تأويله : فالرب إذا تكلم فكلامه ليس بحرف ، ولا صوت ، وهذه صفة كلامه النفسى كما قررها علماء الكلام ، ولكن إدراك الخطاب الإلهى يتحقق فى كل جنس بحسبه ، فإذا تلقى الإنسان ذلك الخطاب فمن خلال الحرف ، والصوت ، واللغة ، وإذا تلقته الملائكة فمن خلال قدراتها التى تختلف عن قدرات الإنسان ، لاختلاف طبيعتها عن طبيعته ، ولا مانع من أن يكون بلغة ما .. كيفما فطر الله ملائكته .

أما كيف تم هذا الحوار فخوض فى غمار الغيب المحجوب ، والحديث فيه اتباع لما تشابه من آيات الله ، ونسأل الله أن يباعد بيننا وبين الفتن ،

وأن يلهمنا القدرة على تأويل هذه المتشابهات بما يليق بجلاله . وكل ما يعنينا هو التسليم بصدق الخبر ، ووقوع الحوار ، ولله فى ذلك حكمة هو أعلم بها .

ولا ريب أن تلقى النبى ﷺ لهذا الخطاب كان مختلفاً عن تلقينا له ، باعتبار أنه أعلم بربه وأنه ذو اتصال بالملأ الأعلى (عالم الملائكة) ، منذ جاء الروح الأمين بالوحى ، فإذا خاطب الله نبيه فإن لهذا الخطاب موقعه من نفس النبى ، حتى تكاد قدراته الروحية ترفعه إلى مرتبة الشهود ، استشفافاً لما وراء الكلمات المنزلة ، واستشرافاً للحضور القدسى ، فهو ماثل على الأرض ، وهو فى نفس الوقت يعاين من آيات ربه ما لا يعاين الجلوس من حوله ، إن كان الوحى بمحضر منهم .

أما الملائكة فحسبنا من وصفهم ما جاء بشأنهم فى القرآن ، فهم : ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ، وهم لا يسبقون الله سبحانه ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء] ، وهم كذلك : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم] .

ووصفهم القرآن أيضاً فى مطلع سورة فاطر أو (الملائكة) ـ بقوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. (١)﴾ [فاطر] .

ولا ريب أن لهذه الأوصاف معانى محددة لا نستطيع أن نحيط بها علما وحسبنا هنا أن ننقل عن تفسير (المنار) ما قرره الأستاذ الإمام محمد عبده ، حين تحدث عن الملائكة ، فقال : (أما الملائكة فيقول السلف :



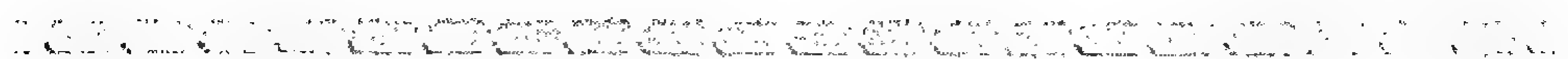
إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم ، وببعض عملهم ، فيجب علينا الإيمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض علمها إلى الله تعالى. فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك ، ولكننا نقول : إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور ، إذ لو كانت كذلك لرأيناها ، وإذا ورد أنهم موكلون بالعوامل الجسمانية ، كالنبات والبحار فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالماً آخر ألطف من هذا العالم المحسوس ، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل لا يحكم باستحالة هذا ، بل يحكم بإمكانه ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به) .

ثم قال : (وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة ، وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهي من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه ، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه ، ولا سيما عند الحيرة . والسؤال يكون بالمقال ، ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سننه تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملي ، والاستدلال العقلي ، والإلهام الإلهي) ، وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم ، غير معروف لأحد من البشر ، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك[١] .

---

(١) تفسير المنار ٢١٢/١ - ٢١٣ .



ثانيا : خلق البشر من طين

ونص إعلام الله للملائكة يأتى هكذا ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١)﴾ [ص] واستخدام الصيغة (خالق) هنا يفيد الإحداث .. أى : الإيجاد من عدم ، والسؤال هو : هل هذه الصيغة فى موقعها تفيد المضى ، أو المستقبل ؟ ونرى أنها تفيد المضى ، أى : إن الله كان قد خلق هذا البشر قبل الإعلام به ، وقد أراد أن يخبر الملائكة تهيئة لهم ، حتى يتابعوا أحوال المخلوق ، خلال مراحل التسوية ، والنفخ الإلهى ـ كيما يقعوا له ساجدين ـ كما أمر الله ، ولعل ذلك (الخلق) داخل فى الأمر الأزلى (الخالق) (كن) وهو أمر لم تعرف الملائكة كل تفاصيله ، إلا أن يأذن لها الله بذلك . أما بقية الإعلام فيتضمن ذكر (البشر) و(الطين) ، والعلاقة بينهما .

فأما البشر فهى تسمية لذلك المخلوق الذى أبدعه الله تعالى من الطين ، وأصله فى اللغة من (ب ش ر) ، وهو يفيد (الظهور مع حسن وجمال)، قال ابن فارس : (هو أصل واحد : ظهور الشىء مع حسن وجمال ، وسمى البشر بشراً لظهورهم[1] وفى المعجم الكبير : البشر .. الإنسان ، للذكر والأنثى ، وللواحد والمثنى والجمع ، وقد يثنى كما جاء فى القرآن : ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا (٤٧)﴾ [المؤمنون] ، وقد يجمع على (أبشار)[2] لكن الغالب الكثير فيه إفراده ، مع ملاحظة أن الكلمة جامدة ، لا تتصرف بوجه من الوجوه . والمعنى المتناسب هنا هو ظهور هذا المخلوق من بين تراب وماء ، أى : من طين ، كما ورد ذلك فى الإسراء ، والأنعام ، والصافات ،

(١) مقاييس اللغة ٢٥١/١ .

(٢) المعجم الكبير ٣٣٥/٢ ، وسوف يتحدد المعنى فى سياق المعالجة .

وكان خلقه بكل بساطة كما ظهرت النباتات ، وهو قوله تعالى فى سورة نوح (السبعين نزولاً) : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح].

ومع أن كل حيوان أو طير أو حشر ـ إلى آخر سلسلة الكائنات ـ هو من طين ، فإن البشر هو أبرز هذه المخلوقات ، وآكدها وجوداً ، فلذلك أطلق عليه فى القرآن (البشر) .. أى : الظاهر على كل الكائنات الطينية .. يسخرها لخدمته ، ويستمد منها قُوتَهُ وقُوَّتَهُ ، ويصارع وجودها تأميناً لوجوده .

وربما كان إطلاق كلمة (بشر) أيضا بهذا المعنى ، وهو (الظهور) ـ مقابلاً لما يتصف به عالم الملائكة ، وعالم الجن ، من عدم الظهور ، فهم خلق لا يُرَى ، وقد قرر القرآن ذلك بشأن (الجن) ، إذ هى كلمة مشتقة من معنى : (الاجتنان) وهو الاستتار ، والله يقول عن الشيطان وقبيله: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ..﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف] ، فالظهور فى البشر ، والخفاء فى الجن ـ هما حقيقة الحياة التى تعمر هذه الأرض ، على اليابسة ، والماء ، وفى جو السماء .

والعجيب أن للعربية هنا تميزاً وتفوقاً على اللغات الأخرى ، فقد حققت بهذا اللفظ (بشر) تطابقاً عجيباً مع معناه ، وكأنما كانت تستملى الغيب ، وتستقرئ أستاره ، ليمنحها هذه اللفظة ، دون اللغات الأخرى فى الفصيلة السامية ، بل دون ما عهدنا من اللغات الأوروبية .

فاللغات السامية كالسريانية ، والحبشية ، والآرامية ـ لا تعرف كلمة (بشر) ، بل ولا تعرف كلمة (إنسان) ، وإنما المستخدم فيها هو ما يؤخذ من كلمة (آدام) ، أو (بنى آدام) ، وقد عرفت العبرية هاتين

الكلمتين فعلاً للدلالة على (الإنسان) ، وأما (بشر) فقد جاء فى سفر التكوين لفظها بالسين (بسر) ، وهى بمعنى (لحم) ، وبمعنى (نفس) فى عبارة العهد القديم : (كل بسر حى) ، أى : كل نفس حية[1] .

غير أن هذه الكلمة (بسر) على خلاف القاعدة الغالبة بين العربية والعبرية ، فنحن نعرف أن ما ينطق بالسين فى العربية هو فى العبرية بالشين ، مثل : سلام وشالوم ، وسماء وشماى . وطردا لهذه القاعدة كان الأنسب أن تكون بالسين فى العربية وبالشين فى العبرية ، لكن ما حدث هو العكس .

هذا من ناحية اللفظ ، وأما من ناحية المعنى فهناك اختلاف كامل بين معنى الكلمة (بشر) فى العربية ، ومعنى (بسر) فى العبرية .. وهى علامة استفهام تحتاج إلى إجابة حاسمة .

وفى الفارسية استخدمت الألفاظ العربية ، مع كلمة (مَرْد) ، وهى الوحيدة فى اللسان الفارسى بمعنى (رجل ونفر وشخص وإنسان) ، وهى أيضا كلمات مستخدمة فيها .

وفى اللغة الأردية استخدمت كلمة (آدمى) فى ترجمة كلمة (بشر) ، واستخدمت كلمة (إنسان)[2] .

وأما اللغات الغربية فمنها الإنجليزية ، وقد استخدمت كلمة (man) بمعنى (بشر وإنسان) ، وقد استخدم محمد بكثال فى ترجمته للقرآن

(١) معلومات مستقاة بواسطة الزميل الدكتور عبد الرحمن عوف ـ رحمه الله ـ أستاذ العبرية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة .

(٢) قرآن حكيم ـ أردو ترجمة ـ سيد بشير أحمد .

كلمة mortal بمعنى (بشــر) ، وكلمة man بمعنى (إنســان) ، فى حين استخدم المترجم عبد الله يوسف على كلمة man فى كلا المعنيين . ومع أن الإنجليزية عرفت كلمتين هما : mankind و ـ human being ، فإن كلتيهما ذات علاقة بمعنى (إنسان) .

وكذلك الفرنســية ، فقد جاء فى ترجــمة دنيس ماسون استــخدام كلمة homme مــقابل (إنســان) ، و mortel مــقابل (بشــر) ، وفى ترجمــة صلاح الدين كشريد homme : إنسان ، etre humain : بشر ، واقــتصر محمد حميد الله على كلمة homme للمعنيين ، فى حين استخدم جاك بيرك homme : إنسان ، و humain : بشر .

ولا يخفى أن المراد بكلمة mortel هو : الفانى أو الهالك ، فى حين تعنى عبارة etre humain أو human being : كائن إنسانى ، فلم تعـرف اللغتان ما عـرفته العـربية لكلمــة (بشر) من تقابل مـعناها مع المقصـود بكلمة (جن أو ملك) ، أو دلالتها على الحسن والجمال .

وقد استخدم مترجم القرآن إلى اللغة المجرية كلمة ember وهى بمعنى : (إنسان) فى ترجمة كلمة (بشر)[١] .

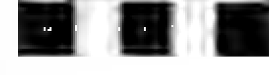
كما استخدمت اللغة التركية كلمة (إنسان) فى الموضعين[٢] .

ومهمـا تتبعنا ترجمات القـرآن فى اللغات المختلفة فـإننا لا نجد سوى كلمة منه فى مراجعـتنا لمجموعة الترجمات التى أصدرها مـجمع الملك فهد ابن عبـد العزيز بالمـدينة المنورة ، وقد بلغت عـدتها تسع عـشرة ترجـمة

(١) ترجمة القرآن إلى اللغة المجرية ـ كونفيك هيلكون ـ سورة الحجر ـ ص ١٨٤ .

(٢) ترجمة القرآن إلى اللغة التركية ـ مجمع الملك فهد ـ المدينة المنورة ـ ص ٢٦٢ .

باللغات الإسلامية وغيرها ، وهو دليل على أن مترجمى القرآن لا يجدون فى لغاتهم سوى كلمة واحدة للمعنيين ، وهى دائماً بمعنى (إنسان) .



استعمالات القرآن لكلمة (بشر)

ولو أننا تابعنا استعمال القرآن لهذه الكلمة فسنجد أنها استخدمت فى نفس السياق ، وبنفس المعنى (مخلوق ظاهر مع حسن وجمال) ، فى أربعة مواضع هى قوله تعالى (على ترتيب النزول) :

١ - ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) ﴾ [ص]

٢ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا (٥٤) ﴾ [الفرقان]

٣ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾ [الحجر]

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

أما بقية المواضع فقد استخدمت فيها الكلمة بمعنى عام ، هو (مخلوق غير متميز) ، أو بمعنى أعم : (مخلوق) ، فإذا أريد تمييز هذا المخلوق ألحقت الكلمة بوصف مميز ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم] ، أى : مخلوقاً معتدلاً ، لا إفراط ولا تفريط ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء] ، أى : مخلوقاً مرسلاً من الله ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (٦) ﴾ [فصلت] ، فهو مخلوق متميز على كل المخلوقات بالوحى المنزل .

وقد يُضْمَرُ الوصف ويبرزه السياق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف] ، فمع أن كلمة (بشراً) هنا نكرة، فإن السياق يفيد أن المشار إليه ، وهو (الجمال) ليس جمال مخلوق بشر .. بل هو جمال ملك كريم ، وهى جملة تأتى على سبيل المبالغة ، وإلا فالملك الكريم مخلوق أيضا كالبشر ، والمعنى فى النهاية : هذا بشر جميل فائق الجمال ، حتى فاق جنسه ، ودخل فى جنس آخر أجمل وأرقى .

وقد جاء استخدام اللفظة بالمعنى العام فى قوله تعالى : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر] ، وهو إنكار من قوم ثمود أن يكون صالح بشراً متميزاً عليهم ، وهو قول تكررت روايته فى القرآن فى نفس السياق القصصى : ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا .. ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] ، فعدم التميز هنا يعتبر وصفاً كالتميز تماماً .

واستخدمت الكلمة بالمعنى الأعم فى مثل قوله تعالى على لسان مريم : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم] ، أى : مخلوق على الإطلاق .

ولم تخرج الكلمة فى الاستعمالات القرآنية عن هذا الإطار ، مع ملاحظة أنها وردت فى الوحى المكى فى سبعة وعشرين موضعاً ، ولم ترد فى الوحى المدنى إلا فى أربعة مواضع ، مقتصرة على إفادة معنى (مخلوق) فقط ، وهى الآيات :

١ - ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. ﴿٤٧﴾ ﴾[آل عمران].

٢ - ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران].

٣ - ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن] .

٤ - ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] .

وخلاصة القول أن الكلمة جاءت فى القرآن بمعان أربعة :

الأول : البشر هو : الظاهر على كل الكائنات (وهو المعنى الأصلى)

الثانى : المخلوق بإطلاق (وهو المعنى الأعم)

الثالث : المخلوق غير المتميز (وصف سلبى)

الرابع : المخلوق المتميز (وصف إيجابى)

ومن الواضح أن المعنى الأصلى الحقيقى هو المعنى الأول ، أما المعانى الثلاثة الأخرى فهى معان سياقية يمكن اعتبارها توسعاً فى استخدام المعنى الأصلى ، وهو فيما لاحظنا أكثر شيوعاً فى الاستعمال القرآنى .

أولا : حقيقة الطين

أما الطين فقد جاء فى مواضع مختلفة بهذا اللفظ ، والمقصود به إجمالاً: (تراب + ماء) . وقد بادر النص الكريم إلى ذكر (الماء) أصلاً لخلق البشر ـ والماء أحد طرفى المعادلة ـ فى قوله تعالى فى سورة الفرقان (الحادية والأربعين نزولاً) قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. (٥٤) ﴾ [الفرقان] ، وهى إشارة تدخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] ، وسورة الأنبياء هى الثانية والسبعون نزولاً ، إلى أن ينزل النص الكريم بتفصيل حاسم فى سورة النور ، وهى السورة الثانية بعد المائة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور] ، وليس وراء ذلك شكل من أشكال الحياة فيما يدب على الأرض ، وإن تنوعت الأشكال فيما لا يدب على الأرض .

وَعَوْدٌ إلى سورة الفرقان ـ الحادية والأربعين نزولاً ـ والتى ذكر فيها (الماء) أصلاً للبشر ـ لنجد أن السورة التالية لها مباشرة فى التنزيل ، وهى الثانية والأربعون (سورة فاطر) ـ تذكر (التراب) ، وهو الطرف الثانى للمعادلة الطينية ، فيقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾ [فاطر] ، وهى آية تتضمن الكثير من اختصاصات القدرة الإلهية ، ففيها - إلى جانب (التراب) و (النطفة) - إشارة إلى الزوجية ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ، وكأنها تفسير بوجه آخر لعبار السورة السابقة (الفرقان) التى ذكرت ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ .. أى : فى شكل أزواج تتكامل فيما بينها(١) .

ثم تكتمل معادلة الطين بردها إلى الأرض ، باعتبارها منبت الخلق ، وذلك فى سورة (طه) (الرابعة والأربعين) ، فيقول سبحانه : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه] ، كما قال فى السورة السبعين (نوح) : ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)﴾ [نوح]

ويتكرر ذكر التراب بعد سورة (فاطر) فى سورة الكهف (الثامنة والستين نزولاً) ، فى قوله تعالى : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧)﴾ [الكهف] . وهكذا يقدم القرآن الحقيقة إجمالاً ، ثم يفصلها تدريجياً على مسار الوحى .

ويتعرض القرآن فى سورة الحجر ، وهى السورة الثالثة والخمسون نزولاً ، وذلك فى الآية الثامنة والعشرين - يتعرض لبعض أوصاف الطين: المادة البشرية ، وهى قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ

(١) لا يرد على هذا ما توصل إليه العلم أخيراً فى مجال استنساخ الحيوان ، وهو ما فوجئ به العالم فى قضية النعجة (دوللى) ، فإن إشارة القرآن إلى إنتاج الإنسان عن طريق الزوجية تعبير عن الطريق الرسمى لعبور الأناس إلى مجال الحياة المرضية ، وهو لا ينفى وجود طرق أخرى يحاول العلم معرفتها .

مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾ [الحجر] ـ لقد زادت هذه الآية المادة وضوحاً حين ذكرت أن الطين كان فى شكل (صلصال من حمأ مسنون) ، و (الصلصال) هو الطين اليابس ، أو هو الطين الحر خلط بالرمل ، فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وآية سورة الرحمن (السادسة والتسعين نزولاً) : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن] .. تنفى عن الصلصال أن يكون طبخ بالنار ، وإن شَبَّهَتْهُ بالفخار فى جفافه ، والحمأ : هو الطين الأسود ، والمسنون هو المبتل المنتن ، وقد زاد من صفات هذا الطين فى سورة الصافات (الخامسة والخمسين) فذكر أنه ﴿ طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) ﴾ [الصافات] ، بمعنى : متلاصق أملس متماسك .

وسواء ـ فى الحقيقة ـ أن يستخدم القرآن فى تعبيره عن أصل البشر: الأرض أو التراب ، أو الطين ، أو الصلصال ، أو الحمأ المسنون ، فكل ذلك لا يختلف ، لأن المكونات واحدة تماماً ، فى التراب وأشكاله السابقة ، وفى الجسد البشرى أو المادة الحية .

يقول الأستاذ البهى الخولى : (لو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض الخصبة ، وأجريت عليها عمليات التحليل الكيماوى لوجدتها تتركب من ستة عشر عنصراً ، ولو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عمليات هذا التحليل لوجدتها كذلك تتركب من ستة عشر عنصراً ـ هى نفس العناصر التى تتركب منها تربة الأرض ، وهذه العناصر هى ما يأتى :

١ – الأكسجين = ٦٣,٠٣٪	٢ – الكربون = ٢٠,٢٠٪
٣ – الأيدروجين = ٩,٩٠٪	٤ – النيتروجين = ٢,٥٠٪

٥ – الكالسيوم = ٢,٤٥٪ ٦ – الفسفور = ١,٠١٪

٧ – الكلور = ٠,١٦٪ ٨ – الفلور = ٠,١٤٪

٩ – الكبريت = ٠,١٤٪ ١٠ – البوتاسيوم = ٠,١١٪

١١ – الصوديوم = ٠,١٠٪ ١٢ – المغنيسيوم = ٠,٠٧٪

١٣ – الحديد = ٠,٠١٪

اليود + السليكون + المنجنيز = آثار ضئيلة(١)

وقد تبين من جمع النسب المختلفة أن الآثار الضئيلة من (اليود ، والسليكون ، والمنجنيز) لا تتجاوز ٠,١٨٪ للمواد الثلاث . وقد أضافت قوائم أخرى مواد أرضية دخلت فى تكوين الإنسان ، وهى النحاس ، والكوبالت ، والتوتيا ، والموليديوم ، والألمونيوم ، والسيلنيوم ، والكادميوم، والكروم ، وبذلك تصل العناصر الترابية فى الإنسان إلى أربعة وعشرين عنصراً .

فخلق البشر كان من معدن الأرض ، كما قال سبحانه وتعالى فى السورة الثانية والعشرين نزولاً ـ أى فى الوحى المكى المبكر ـ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ .. (٣٢) ﴾ [النجم] ، أى : من معدن الأرض ، وهو الصلصال المتخذ من الطين الأسود المنتن ـ هكذا شاءت إرادة الله ، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة ، أو أن يكذب بها ، مع أن هناك فى مرأى العين مسافة هائلة بين الطين واللحم البشرى .. الطين مادة خامدة ، واللحم البشرى نسيج حى متنام ،

(١) أنظر آدم عليه السلام للبهى الخولى ص ١٥ وما بعدها .

وهى مسافة لم يقطعها العقل الإنسانى حتى الآن ، ولن يقطعها فى المستقبل ، بمعنى أن العقل لن يكشف عن سر التحول الذى جعل التراب لحماً حياً ومتنامياً ، ومن ثَمَّ لن يكون بوسع الإنسان ـ مهما تقدم فى دراساته عن الخلية الحية ، وعن الهندسة الوراثية ـ أن يحول التراب إلى خلايا حية ، فالمسافة بينهما برزخ يستحيل عبوره على قدرات الإنسان ، لأنها فى الواقع تعبير عن إمكانات قدرة الله المتفردة بالخلق والإبداع ، بالإحياء والإفناء .

هذا عن المسافة بين التراب والمادة الحية ، فأما عن المسافة بين التراب والمخلوق البشرى فيقول الأستاذ سيد قطب ، وهو يعلق على قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ ﴾ [الطارق] ، (فالمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير ، بين الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب ، وبين الإنسان المدرك العاقل، المعقد التركيب العضوى ، والعصبى ، والعقلى ، والنفسى .. هذه المسافة الهائلة التى يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق .. توحى بأن هناك يداً خارجَ ذات الإنسان ، هى التى تدفع بهذا الشىء المائع الذى لا قوام له ، ولا إرادة ، ولا قدرة فى طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهى به إلى هذه النهاية الماثلة ، وتشى بأن هناك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، فى رحلتها الطويلة العجيبة ، وهى تحوى من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب ، من مولده إلى مماته)[1] .

---

(١) فى ظلال القرآن ـ سورة الطارق .

ولا يفـوتنا هنا الإشارة إلـى أن الماء قد يقـصد بـه ما يخلط بالتـراب ليصيـر طيناً ، وقد يقصد به الماء المهين الذى يبـدو فى ظاهره لا علاقة له بالطين ، وإن كان فى الحقيـقة حافلاً بموجودات ترابية ـ طينيـة ، متمثلة فى الكائنات الحيـة التى تعتبر : (كـبسولة الحياة) ، ويتـحدث العلم عن مئات الملايين من هذه الكائنات الحية فى منىّ الرجل .. فى الدفقة الواحدة تندفع فى رحم المرأة ، فى نهاية الاتصـال الجنسى .. وكل هذا صادر عن التراب ، وعائد إلى التراب .

ثانياً : الخلق النفسى

وتبقى بعد ذلك آيتان تحدثتا عن خلق الإنسان من نفس واحدة ، وهما: آية الأعراف ، وهى السورة الثامنة والثلاثون نزولاً .. قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) ﴾ [الأعراف] .

وآية النساء ، وهى السورة الثالثة والتسعون نزولاً .. قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء] .

والآيتان تقرران وحدة الأصل الإنسانى ، إذ المخاطب ههنا هو الناس ، كما هو نص الآية الثانية ، وكما هو مفهوم الآية الأولى ، لأن الخطاب فى القرآن لم يوجه مطلقاً إلى البشر .. بل إلى الإنسان ، وبدهى أن نعرف أننا جميعا منتمون لآدم ، كما قال رسول الله ﷺ : (كلكم لآدم) ، أى : لآدم وحواء ، باعتبارهما المصدر الوحيد الذى تناسلت منه كل الذرارى الإنسانية .

غير أن خلق زوج آدم من نفسه مشكل ، فهل حواء من ضلع آدم كما وردت بذلك آثار ؟ أو أن حواء خلقت خلقاً مستقلاً ، كما هو شأن آدم ؟

الاحتمال الأخير هو الراجح فى نظرنا لأمرين :

أولهما : أن كثيراً من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها .

ثانيهما : أن خلق حواء من نفس آدم مؤول على أنها من نوعه وجنسه، وقد جاء ذلك بالنسبة إلى كل زوج فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. (٢١) ﴾ [الروم]

ومن المؤكد أن المقصود بآية الأعراف ليس آدم وزوجه ، لأن الآيات بعدها تتحدث عن أن الزوجين جعلا لله شركاء فيما آتاهما من الذرية ، ولم يكن هذا من آدم وزوجه .

وتبقى آية النساء معبرة عن الأصل النفسى الذى انبثقت منه كل النفوس ، وعلى الرغم من اختلاف الأقوال فى حقيقة هذه النفس ، فإننا نميل إلى أنها هى سر الله فى الإنسان ، وبها صار إنساناً ، دونما سواه ، فالخلق فيما انتهى إليه تأملنا فى هذه المسألة يتم على مستويين :

خلق مادى من تراب ، وهو الخلق البشرى الظاهر .

وخلق نفسى من روح الله ، وهو الخلق الباطن ، ونحن على يقين من أنه لولا تلك النفخة الإلهية لما كان ذلك المخلوق سوى دابة من دواب الأرض .

فلماذا أغرق العلماء أنفسهم فى البحث عن ماهية النفس ، دون أن يصلوا فيها إلى شيء ، مع أن الحقيقة واضحة بين أيديهم ، وهى فى غاية الوضوح بقدر ما هى فى منتهى الغموض ؟!!

إنها غيب من غيب الله ، وسر من أسراره ، وهذا هو الوضوح الذى نقصده ، كالكهرباء لا تعرف حقيقتها إلا بآثارها ، والعقل والروح والنفس قوى أودعها الله كيان هذا الإنسان ـ لا تدرك حقائقها ، وإن استدل على وجودها بآثارها ، ومن آثارها أن تنبثق منها زوج الرجل التى يسكن إليها .

البشر والإنسان

إذا كان القرآن قد ذكر خلق (البشر) فى أربع آيات ، فقد ذكر خلق (الإنسان) فى خمس وثلاثين آية ، هى على ترتيب النزول موزعة بين المكى والمدنى . فالآيات المكية هى :

١ - فى السورة الأولى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق] .

٢ - وفى السورة السابعة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) ﴾ [الأعلى] .

٣ - وفى السورة السابعة والعشرين : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) ﴾ [التين] .

٤ - وفى السورة الثلاثين : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة] .

٥ - وفى السورة الثانية والثلاثين : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) ﴾ [المرسلات].

٦ - وفى السورة الثالثة والثلاثين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا

تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق] .

٧ - وفى السورة الخامسة والثلاثين : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق] .

٨ - وفى السورة الثامنة والثلاثين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف] .

٩ - وفى السورة الأربعين : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] .

١٠ - وفى السورة الثانية والأربعين : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر].

١١ - وفى السورة الثالثة والأربعين : ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم] .

١٢ - وفى السورة الرابعة والأربعين : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه] .

١٣ - وفى نفس السورة : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] .

١٤ - وفى السورة الخامسة والأربعين : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الواقعة] .

١٥ - وفى السورة التاسعة والأربعين : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا

لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء] .

١٦ - وفى السورة الثالثة والخمسين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] .

١٧ - وفى السورة الرابعة والخمسين : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام] .

١٨ - وفى السورة الخامسة والخمسين : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات] .

١٩ - وفى السورة التاسعة والخمسين : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] .

٢٠ - وفى السورة الثامنة والستين : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] .

٢١ - وفى السورة التاسعة والستين : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ [النحل] .

٢٢ - وفى السورة السبعين : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح] .

٢٣ - وفى نفس السورة : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح] .

٢٤ - وفى السورة الثالثة والسبعين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ

مّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] .

٢٥ - وفى السورة الرابعة والسبعين : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ .. (٩) ﴾ [السجدة] .

٢٦ - وفى السورة الحادية والثمانين : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ [الانفطار] .

٢٧ - وفى السورة الثالثة والثمانين : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم] .

٢٨ - وفى نفس السورة : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] .

والآيات المدينة هى :

٢٩ - وفى السورة السابعة والثمانين : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] .

٣٠ - وفى السورة الثالثة والتسعين : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء] .

٣١ - وفى السورة الثامنة والتسعين : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] .

٣٢ – وفى نفس السورة : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن] .

٣٣ – وفى السورة التاسعة والتسعين : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان] .

٣٤ – وفى السورة الخامسة بعد المائة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] .

٣٥ – وفى السورة الثامنة بعد المائة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. (١٣)﴾ [الحجرات] .

ويلاحظ فى نصوص هذه الآيات أن (خلق الإنسان) جاء بلفظه فى ستة عشر موضعاً ، وأن بقية المواضع ـ وهى تسعة عشر موضعاً ـ يدل السياق فيها على أن المراد بها هو (الإنسان) ، وليس (البشر) ، حيث اكتفى النص بالإشارة دون العبارة ، أو جاء الخطاب للناس لا للإنسان ، أو كان النص على آدم ، وهو ـ فيما نرى ـ أول إنسان ، وكل ذلك جاء فى سور : (الأعلى ، والمرسلات ، والأعراف ، وفاطر ، وطه ـ فى موضعين – وفى الإسراء ، والأنعام ، والصافات ، وغافر ، والكهف ، ونوح – فى موضعين ـ والروم ، والبقرة ، والحج ، والحجرات ، وانفردت الواقعة بدعوة الناس إلى التأمل فيما يفرزون من منىّ) .

ولسوف يتضح لنا فيما بعد ـ أن المراد فى هذه المواضع هو (الإنسان)، وليس البشر ، والآيات الست عشرة تتحدث عن (خلق الإنسان) تارة من علق ، وأخرى من نطفة ، أو من (نطفة أمشاج) ، وثالثة (من طين)، أو

(من سلالة من طين) ، أو (مـن صلصال من حمـأ مسنون) ، أو (من صلصال كالفخار)[1] .

وتأتى آية سورة الحج (السورة الخامسـة بعد المائة) فتخاطب الناس نصـاً وصراحـة ، فتـقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. ﴾ إلى آخر الآية وهى تجمع إشارتين إلى الأصل الأول ، وهو التراب ، وإلى الأصل البديل ، وهو النطفة .

و (الناس) : اسم جمع لبنى آدم ، واحده (إنسان) من غير لفظه .

القـرآن المـكى

فإذا تابعنا بنـاء الصورة التى تأتى لبناتها فى الآيـات المكية المتتـابعة وجدنا الحـديث عن البداية المرئيـة للإنسان ، وهى (العلـق) فى السورة الأولى ، ثم تأتى إضـافة فى السـورة السابعـة ، تشيـر إلى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ، ثم تأتى لمحة عـن المستوى الأخـلاقى ـ فى السـورة السـابعة والعشرين ، فهو قد خُلِقَ أولاً ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ، ثم ارتد إلى ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ثم اسـتثنى من هؤلاء الـسفلة جـماعـة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، وهى رسالة موجهة إلى معارضى الدعوة والمكذبين بالدين من كفار قريش .

ويعود الوحى إلى بيـان آليات الخلق فى السورة الثلاثين (القـيامة) : منىّ يفرز نطفة تتحول إلى علقة تحمل عناصر الذكورة والأنوثة ، بحسب تقدير الله وتحديده للنوع ، وتشير السورة الثانية والثلاثون (المرسلات)

---

(١) هو صلصال ، وليس فخاراً ، لأن الفخار هو الطين المحروق ، وكأن التشبيه يحتفظ فى السياق بهذا الفرق فى الدلالة .

إلى نفس المعنى ، لكنها تذكر المكان الذى تتم فيه عملية الخلق ، وهو (القرار المكين) أو (الرحم) .

ثم يأتى الحديث فى السورة التالية مباشرة ، وهى الثالثة والثلاثون (ق) ليؤكد حضور الله سبحانه وتعالى فى وجود هذا الإنسان ، وهو ملمح تربوى ، يستطرد بعده الوحى فى السورة الخامسة والثلاثين (الطارق) ليقرر أن هذا الخلق العظيم ، (خلق الإنسان) ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [الطارق] ، والصلب : فقار الظهر ، وهى منبع الماء الدافق عند الرجل ، والترائب : جمع .. مفرده تريبة، وهى عظام الصدر مما يلى الترقوتين ، وهى منبع ماء المرأة ، وهذه المعلومة كانت مجهولة للإنسان ، وبقيت مجهولة حتى منتصف القرن العشرين ، وقد تضمنها الوحى القرآنى منذ أوائل هذا الوحى ، أى : منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .

ثم تأتى السورة الثامنة والثلاثون (الأعراف) لتتحدث عن الخَلْق والتصوير : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ ، وهما مرحلتان فى عمر البشرية ، لعلهما استغرقتا بضعة ملايين من السنين ، والتصوير هنا يقابل التسوية فى مواضع أخرى ، ومع ملاحظة استعمال الأداة (ثم) التى تفيد التراخى بين الأمرين ، وهو ما سنفرد له معالجة أخرى .

وتنزل فى السورة الأربعين (يس) إشارة إلى ما يسبق العلق ، وهو (النطفة) مرة أخرى ، ولكن يقرن ذلك بالعجب من أن لا يعرف هذا المخلوق قدره فى مواجهة خالقه .. ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس] .

ويواصل الوحى تعريف الإنسان بأصله فى السورة الثانية والأربعين (فاطر) فيجمع لأول مرة بين التراب والنطفة ، ويضيف آية من آياته ، وهى خلق الزوج ليأتلف مع زوجه ، وهو يتابع بعلمه ما يتم بين الأزواج، وما يترتب عليه من حمل ووضع ، كما يتابع الأعمار ـ طويلة وقصيرة .

ثم يساعف التنزيل ذلك الإنسان فيخاطب عقله وذاكرته فى السورة الثالثة والأربعين (مريم) ويسأله عن مرحلة ما قبل وجوده ، إن كان لديه شيء يذكره غير العدم : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ ، فالآية ترد الإنسان إلى ما سبقه من عدم ، وهو أنصع برهان على أنه مُحْدَثٌ بيد القدرة ، وهى إشارة تشبه إلى حد كبير ما استهلت به سورة (الإنسان) ـ التاسعة والتسعون (المدنية) .

ويلى (مريم) فى ترتيب النزول (طه) وهى السورة الرابعة والأربعون، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، وكأنها تدل الإنسان الباحث عن مبدأ خلقه إلى نقطة البداية التى ليس وراءها شيء يذكره مهما حاول .

فإذا نظر الإنسان إلى الأرض ـ ومنها خلقه الأول ـ أدركه سؤال السورة الخامسة والأربعين (الواقعة) ليقرب إليه صورة من الحقيقة .
﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ ؟؟

فإذا نظر إلى الأرض ليبحث عن أصله فليعلم أن جزءاً من هذه الأرض قفز إلى صلب أبيه ، وترائب أمه ، فلقحت ـ فيهما ـ الأرضُ الأرضَ ، فكان ذلك المخلوق الباحث عن الحقيقة ، يحسبها بعيدة ، وهى بين يديه ، وفى إهابه : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] .

الإنسان يخرج من البشر

وهنا يأتى النص الكريم فى السورة الثالثة والخمسين (الحجر) ليرد الإنسان إلى أصل (البشر) : ﴿ صلصال من حمأ مسنون ﴾ ، ولما كان السياق فى السورة يذكر (الإنسان) فى مقابل (الجان) فى آيتى الحجر: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر] فإن الحديث عن الأصل الترابى يرتبط غالباً (بالبشر) ، ولذلك يعود النص إلى الأصل فيقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

والربط بين (الإنسان) و (الصلصال) سياق تتولى تفسيره الآيات التالية التى تحدد المراد بالإنسان ، وهو (البشر) .

وينبغى أن نلاحظ أسلوب القرآن فى سَوْق الحقيقة هنا ؛ فهو يذكر (الإنسان) هكذا معرفاً ، باعتباره الموضوع الأساسى المقصود بالذكر ، والمخاطب بالآيات ، وهو فى مقابل (الجان) المشارك للإنسان فى التكليف والمسئولية على هذه الأرض .

فإذا شرع فى بيان حقيقة الخلق منذ البداية ؛ ذكر أن هذه البداية كانت فى صورة (بشر) .. هكذا مُنكَّراً .. باعتباره النموذج الذى أجريت عليه عمليات التسوية ، والتصوير ، والنفخ من روح الله (أو التزويد بالملكات العليا التى كان بها البشر إنساناً ـ وهى العقل ، واللغة ، والدين) .

فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشرى إنساناً .. بل كان بداية خلق إنسان فى حيز القوة ، قبل أن يكون إنساناً فى حيز الفعل .

لم يكن أحد من الجن أو من الملائكة يعلم شيئاً عن سر ذلك المخلوق البشرى ، أو عما سيؤول إليه أمره ، فذلك كله كان غيباً فى علم الله وحده، وهو من اختصاص قدرته التى تابعت تنفيذ المخطط ، وتحقيق التسويات المطلوبة عبر الأجيال ، كما زودته تلك القدرة العظمى بعوامل التألق حتى صار البشر الغشيم (إنساناً) صالحاً للتكليف ، وحمل الأمانة الإلهية .

وكل ذلك الفرق الهائل بين البشر والإنسان يشى به الاستعمال القرآنى، وهو فرق ما بين التعريف والتنكير فى هاتين الآيتين من سورة الحجر .

ويرد هذا المعنى إجمالاً لـلتذكير فى سورة (الأنعام) التى جاءت بعد الحجر مباشرة وهى الرابعة والخمسون : ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ**﴾ .. فهو (طين لازب) ، كما فى السورة التالية مباشرة (الصافات) ، غير أن بقية آية الأنعام تتحدث كما رأينا عن (أجلين) فى قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ**﴾ ، وقد كان تحديد المقسود بالأجلين موضع اجتهاد المفسرين ، فحصروه فى ثلاثة احتمالات :

فإما أن يكون الأجل الأول أجل الموت ، والآخر : القيامة ..

وإما أن يكون الأول : ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثانى ما بين الموت إلى البعث (وهو البرزخ) ..

وقيل الأول : النوم ، والثانى : الموت ، (الكشاف ٢ / ٤) .

وذكر تفسير المنار (٧/٢٤٨) أن الأجَل الثانى هو أجل حياة مجموع

الناس الذى ينقضى بقيام الساعة ، وقيل : الأجل الخاص بكل فرد ، والأجل العام وهو عمر الدنيا .

ونحسب أن هناك احتمالاً غاب عن هذه التقديرات ، وهو أن الأجل الأول (النكرة) هو أجل الحياة البشرية السابقة على العهد الإنسانى ، وأما الأجل المسمى ؛ فهو أجل كل فرد من المكلفين ، فالأول مجمل يندمج فيه الكل فى واحد ، والثانى مفصل لكل فرد ، لتعلقه بالمسئولية والحساب والمصير . ولا مانع فى نظرنا من إرادة ذلك فى الآية .

ثم تأتى السورة التاسعة والخمسون (غافر) فتربط لأول مرة بين التراب والنطفة والعلقة : ﴿ **هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾ ، وهنا يذكر المرحلتين : مرحلة الخلق من تراب ، ومرحلة الخلق من نطفة ، وهما مرحلتان منفصلتان فى الظاهر ، وقد ربط القرآن بينهما بحرف التراخى (ثم) للتعبير عن المسافة الزمنية بينهما .

ويلاحظ أن هذا الموضوع لم يرد له ذكر فى القرآن بعد سورة غافر ، إلا بعد عشر سور .. أى : حتى نزلت سورة (النحل) بإشارتها المقتضبة: ﴿ **خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ ، وهى السورة التاسعة والستون ، ثم تنزل السورة الحادية والسبعون ، سورة (نوح) وفيها إشارة ذات دلالة تاريخية ومادية معاً ، هى قوله تعالى : ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** (١٤) ﴾ [نوح] ، **فمن الناحية التاريخية** : قد يراد بالأطوار المراحل الزمنية المتطاولة التى مر بها خلق البشر ، وتقلبهم فى أطوار التسوية والتصوير والنفخة من روح الله : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ ، **ومن الناحية المادية** : قد يراد بالأطوار ما جاء

بعد ذلك مباشرة من حديث القرآن عن الجنين وأطواره فى (**القرار المكين**) وهو رحم الأم ، فحديث سورة (المؤمنون) هو بمثابة الإجابة عن سؤال نَجَمَ عن ذكر الأطوار فى سورة نوح .. ما هى هذه الأطوار ؟؟.. فجاء الرد فى السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) ، وذلك قوله تعالى : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾** ، وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليتين فى عملية واحدة ، فالإنسان خلق من (**سلالة**) نسلت (**من طين**) ، أى : إنه لم يخلق مباشرة من الطين ، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) ، وكان ذلك منذ ملايين السنين .

وهذا المعنى هو الذى عبرت عنه السورة الخامسة والسبعون (السجدة) وهى إضافة مهمة للرد على السؤال المثار عن المقصود بـ (الأطوار) فى السورة الحادية والسبعين .. يقول الله سبحانه وتعالى : **﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ .. (٩) ﴾** [السجدة] .

فخلق الإنسان (بدأ من طين) ، أى : عند البداية البشرية ، ثم استخرج الله منه نسلاً **﴿ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾** ، ثم كانت التسوية ونفخ الروح ، فكان (الإنسان) هو الثمرة فى نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة .

وحسبنا أن نلاحظ هنا ما يشير إلى بعض مراحل التسوية فى قوله تعالى فى نص سورة السجدة : **﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٩) ﴾** [السجدة] ، فقد تم هذا الجَعْلُ خلال مراحل التسوية ، وهو ما يفترض أن (البشر) كان فى المراحل الأولى بلا سمع ولا بصر ولا فؤاد (عقل) ، تماماً كما هو حال المولود ، حين يخرج

من بطن أمه .. لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل .. لانعدام الحاجة إلى هذه الأدوات فى المرحلة الأولى من الوجود ، فكل ما يحتاجه الوليد هو أن تكون له شفتان ، يمتص بهما غذاءه من ثدى أمه ، وبعد فترة ـ وبالتدريج ـ يبدأ فى استخدام عينيه وأذنيه وعقله فى التعامل مع ما حوله من عناصر الحياة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** .. (٧٨) ﴾ [النحل] .

لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول ، ثم جعل لهم هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشرى بما يحتاج إليه من أدوات الكمال .

بيد أن الحديث فى السورة الرابعة والسبعين (المؤمنون) لم يقتصر على الإشارة التاريخية السابقة .. بل قدم وصفاً ومتابعة لأطوار تكوين الجنين ، وهو إضافة لم تسبق فى أى سياق مكى ، فقال سبحانه : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)** ﴾ [المؤمنون] .

لقد مر النص الكريم بالمراحل المختلفة التى تبدأ بالنطفة ، وتنتهى بالإنسان ، فى هذا الإيجاز المحكم الذى يتضمن حقائق الأطوار فى ذلك القرار المكين .. رحم المرأة ، وهكذا عَبَرَ البشر كل الأطوار ، فصار خلقاً آخر : (**إنساناً**) ، ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ .

وقد نلاحظ هنا أن نص (السجدة) يتلاقى مع هذا النص ، مع فارق

الإجمال والتفصيل ، ومع انفراد (المؤمنون) بمراحل التكوين الجنينى ، وانفراد (السجدة) بمراحل التكوين الطينى .

ويبقى من الوحى المكى ما ورد فى السورة الثانية والثمانين (الانفطار) من قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)** ﴾ [الانفطار] .

وأيضا ما ورد فى السورة الرابعة والثمانين (الروم) من قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)** ﴾ [الروم] ، وهما تنزيلان وردا فى مقام التذكير بقدرة الله ، وهيمنته على الإنسان ، ومشيئته المطلقة.. ﴿ **فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ (يخلق ما يشاء) ، وتنفرد الآية الأولى بمفهوم قوله : ﴿ **فعدلك** ﴾ ، وهو معنى خاص باختيار الصورة التى يظهر بها الإنسان على الأرض ، بين سائر الناس ذوى الصور المختلفة أيضاً ، ولكل مخلوق صورته المتميزة عن سائر الصور ، وتنفرد الآية الثانية بذكر الضعف والقوة ، وضابطهما من المشيئة الإلهية ، فلا ضعف إلا بمشيئته ، ولا قوة إلا باختياره وإرادته ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾.

وبذلك ينتهى الحديث المكى عن خلق الإنسان .

القرآن المدنى

ثم تأتى المرحلة المدنية ، وتبدأ بالسورة السابعة والثمانين (البقرة) ، فتذكر مرحلة أخرى من مراحل الملحمة الخالدة ، دون أن تذكر (البشر أو الإنسان) .. بل هى تركز على (آدم) الذى يهيأ لوظيفة (الخلافة) (البقرة: ٣٠ وما بعدها) وهو من أجل ذلك يعلم من اللغة ما لم تعلمه

الملائكة ، وسيأتى فى ذلك حديث .

وفى السورة الثامنة والتسعين (الرحمن) إشارتان ..

أولاهما : إلى علاقة الإنسان باللغة فى مستواها البيانى : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)** ﴾ [الرحمن] .

وثانيهما : مزيد من التعريف بالصلصال الذى ذكر فى السورة المكية (الحجر) على أنه : ﴿ **صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ ، فتصفه بأنه ﴿ **صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾ ، وذلك فى مقابل أن الجان خلقوا ﴿ **مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾ ، كما سبق أن قابل (الحمأ المسنون) بـ (نار السموم) فى سورة الحجر أيضاً ، وللتكرار هنا فائدة هى مزيد من التعريف بطبيعة المادة التى هى أصل الخلق ، وهى (الطين اللازب) كما جاء فى الصافات .

وتبقى فى المرحلة المدنية إشارة سورة (الإنسان) ، وهى السورة التاسعة والتسعون ، وقد جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)** ﴾ [الإنسان] .

وهو كما نرى نص يضيف وصفاً تحليلياً للنطفة ، فالأمشاج تطلق على الخلايا الذكرية ، كالحيوان المنوى ، وتطلق على الخلايا الأنثوية ، كالبيضة أو البويضة ، قبل أن تندمجا لتكوين اللاقحة (وهى البويضة الملقحة) التى تكون الجنين[1] ، والإنسان خليط من هذه الخلايا ، أو الأمشاج ، وهى حقيقة لم تذكر من قبل فى أى سياق ، إلا ما جاء إشارة عامة عن

---

(١) المعجم الوسيط : مشج .

(الماء المهين) ، و (الماء الدافق) من الصلب والترائب .

وأخيراً تـأتى السورة الخامسـة بعد المائة : (الحج) - لتقدم التـقرير النهائى عن قصة الخلق فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] .

وهى آية تتضـمن تفاصـيل مهمـة ، وبخاصـة فيمـا يتعلق بالمضـغة ، فليست كل مـضغة تتحول جنينـاً .. بل قد تكون مخلقة ، وقـد تكون غير مخلقـة ، وكذلك فيما يتـعلق بحياة الإنسـان : طفلاً ، فبالغاً ، وقـد يحين موتـه أَجلَئذ ، وقـد تمتد به الحـياة إلى أرذل العـمر ، وهى حـقائق سـبق الإيمـاء إليهـا فى سـورة (غافـر : ٦١) ، ولكنهـا جاءت هنا فى خـاتمة التقـرير عن إمكان البعث ، ودفع الريب فـيه من العقـول والقلوب ، وتلكم هى الغاية التـى سيقت من أجلهـا كل هذه النصوص عن (خلق البـشر - الإنسان) :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج] .

وأخـيراً ، يخـتم الوحى حديثـه بخطاب عـام موجـه إلى (الإنسانيـة) جمعاء، من كل الألوان ، والأجناس ، والأصقاع ، تحـقيقاً لعموم الرسالة ، وتأكيـداً لمبدأ المسـاواة المطلقـة بين جميع الناس ، وإعـلاناً للقاعدة الإلهـية

التى سيتم على أساسها محاسبة الخلائق .. يوم الموقف العظيم .. جاء ذلك فى سورة الحجرات ، وهى السورة الثامنة بعد المائة ، فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

إن هذا البيان الإلهى نداء إلى جميع (الناس) يذكرهم بوحدة الأصل ، فهم جميعاً قد نسلوا من ذكر وأنثى ، هما آدم وزوجه حواء ، باعتبارهما أول من تألقت فيه صفات (الإنسان) من سلالات البشر ، ولا التفات إلى ما سبقهما من السلالات والأجيال ، فهما فى الواقع المنبع الذى تدفقت منه جماعات (الناس) على هذه الأرض ، من بنى آدم .. أى : من ظهره ، وقد جعلهم الله شعوباً وقبائل ، فهم أصل واحد ، ووجود متنوع ، وعليهم ـ وقد أدركوا هذه الحقيقة ـ أن يتعارفوا بحكم ما بينهم من قرابة ، فلا فضل لأحد منهم على غيره من شركائه فى الأصل بأى اعتبار مادى ، وإنما يتفاضلون عند الله بالتزامهم لأوامره ، واجتنابهم لمحارمه ، وطاعتهم المطلقة له ، **وبعبارة أوضح** : بألا يأكلوا من الشجرة التى حرمها عليهم ؛ شجرة **المعصية** التى حرّمت على أبويهم فى الجنة ، وهى محرمة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الفصل الثامن

الطريق إلى الجنة

ملاحظات على العلاقة بين البشر والإنسان :

حقيقة لا ريب لدينا فيها ؛ هى أن بين (البشر والإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقاً ، فـ (البشر) لفظ عام فى كل مخلوق ظهر على سطح الأرض ، يسير على قدمين ، منتصب القامة ، و (الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته ، فكل إنسان بشر ، وليس كل بشر إنساناً . والمقصود هو طبعاً المعنى الأول الذى استعملت فيه الكلمة (بشر) فى آيات القرآن ، وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال .

وقد جاءت فى القرآن كلمة أعمّ من : البشر والإنسان ، وهى كلمة (الأنام) ، وتعنى كل مخلوق على ظهر الأرض ، عاقلاً أو غير عاقل ، وإن كان المفسرون يرون أن الكلمة تعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] : الجن والإنس ، وهما الثقلان المخاطبان ، كما هو وارد فى هذه السورة المدنية .

وجاء أيضاً فى سورة (البينة) ، وهى سورة مدنية ، وهى السورة الحادية بعد المائة نزولاً ـ إطلاق لفظة (البرية) على (الخلق) ، والجمع: برايا ، قال الله سبحانه وتعالى فى وصف الكافرين والمشركين :

﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ﴾[البينة] ، وقال فى وصف المؤمنين :
﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾ [البينة] .

ونستطيع أن نقرر مع علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أن الأرض عرفت هذا الخلق الذى ظهر على سطحها منذ ملايين السنين ، تختلف فى تقديرات العلم باختلاف عمر الأحافير ، ونتائج التحليلات العلمية . وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق خطأ أو تجاوزاً لقب : (إنسان) ، فقالوا : إنسان بكين ، أو إنسان جاوة ، أو إنسان كينيا ، أو ما سوى ذلك من الإطلاقات التى تعنى مراحل تكوين (البشر) بإطلاق القرآن ، واستخدام كلمة (إنسان) فى وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسع ، كما استخدمت كلمة (بشر) للدلالة على معنى (الإنسان) توسعاً أيضاً ، وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن ، والذى ينبغى أن يستخدم فى تسمية تلك المخلوقات العتيقة التى تدل عليها الأحافير ـ هو (البشر) ، فواجب أن يقال : بشر بكين ، وبشر جاوة ، وبشر كينيا ، وبشر النياندارتال .. الخ .

أما (الإنسان) فلا يطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير ، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم ـ على هذا ـ هو (أبو الإنسان) ، وليس (أبو البشر) ، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله ، تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد . اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية ، باعتباره من نسلهم .

ولأمر ما وجدنا أن القرآن لا يخاطب البشر .. بل يخاطب الإنسان ، والتكليف الدينى منوط بصفة (الإنسانية) ، لا بصفة (البشرية) ، فلم يعد للبشر القديم وجود منذ ظهر آدم عليه السلام ، وتناسلت ذريته ، وورثت الأرض وما عليها .

ولأمر ما أيضاً وجدنا أن كلمة (البشر) جامدة لا تتصرف ، اللهم إلا بالتثنية والجمع فى قليل الاستعمال ، على حين أن كلمة (إنسان) متصرفة مرنة ، وردت فى القرآن بصور مختلفة ، وهى مفرد ، جمعه : أناسين ، وأناسى ، وقد استعمل مصغراً فقيل : أنيسيان ، والإنس : اسم جماعة الناس ، والجمع أناس ، والواحد : إنسى .

والناس : اسم جمع من النوس ، وهو الحركة .. واحده : إنسان من غير لفظه ، ويقال للمرأة إنسان ، ولا يقال : إنسانة ، وإن شاعت على ألسنة العامة . وكل ذلك أكسب الكلمة مرونة فى الاستعمال .

وليس يبعد أن نفترض أن الخالق سبحانه ـ وقد مضت مشيئته بتفرد آدم وذريته بالسيادة على الأرض ، والنهوض بأمر الدين ، وإقامة التكاليف ، وفى مقدمتها التوحيد ـ قَدَّرَ سُبْحانه فناءَ كل البشر ، من غير ولد آدم ، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المنتقاة فى الجنة ، حتى تتم إبادة جماعات الهمج البشرية ، لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية ، بطليعتها المصطفاة : آدم وحواء ، وبدأ التكليف داخل الجنة ، وبدأ الصراع بعد أن أخليت ساحته من العناصر الطفيلية التى لم يعد لها دور .. بل التى انتهى دورها ، ليبدأ على الأرض دور جديد .. لكن ؛ كيف بدأ هذا الدور ؟.. أو كيف استهل ذلكم العهد ؟

ذلك ما لا سبيل إلى تصويره إلا من خلال الكلمات المجردة ، ولا دور أيضاً للخيال فى رسم صورته إلا من خلال الإيمان المطلق بعالم الغيب ، فذلكم مشهد غيبى تم قبل الزمان الإنسانى بزمان إلهى ، حين صدر أمر بأن يكون الكون .. فكان .. كان كل ما كان ، وكل ما يكون أو سيكون على

طول الزمان ، وبعد أن ينتهى هذا الزمان ، فيبدأ للوجود تقويم زمنى آخر ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ .

حينذاك أمر الله سبحانه كل الذرارى التى قدر أن تخرج من صلب آدم ، وأصلاب بنيه ـ أمرها أن تخرج على ساحة الغيب ، وأن تمثل بين يديه ، كانت آنذاك مجرد ذرات لا يحصيها ولا يحصرها حد ، إلا علم الله وحده.. ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤)﴾ [الملك] و ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم] .

وأسرعت الذرات بالمثول أمام الجلال الإلهى ، فألقى الله ـ سبحانه ـ على المشهد الهائل سؤالاً واحداً هو الذى من أجله كانت الدعوة إلى الحضور :

قال الله : ألست بربكم ؟

وتلقوا السؤال ووعوه فقالوا جميعاً فى صوت واحد : بلى .. شهدنا .

وقال الله مبيناً الحكمة من هذا الحشد : ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف] .

إن النص القرآنى يروى حكاية هذا المشهد الكونى الرهيب ، وهو يطلب من النبى ﷺ وسلم أن يذكر المؤمنين به ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] .

ولا ريب أن سجل كل آدمى ، أو كتابه الذى سيقدم إليه يوم القيامة ـ سوف يكون مستهلاً بصورة من هذا المشهد .. تبين موقعه بين من حضروا هذا اللقاء ، وتثبت وجوده ، وشهادته على نفسه بالإقرار

بعبـوديته لله : إلهاً ، ورباً ، وحـاكماً . وستـكون هذه الصورة هى المرجع الأول أو المستند الرئيسى فى محاكمة كل آدمى يوم القيامة : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] .

هكذا بدأ العهد الآدمى فى مـلحمة الخليقة ، وهكذا كـان الدين وتكاليفه نقطة البـداية فى رحلة الإنسان نحـو الموعد ، مـوعد اللـقاء مع الله ، فـهو يسير بين جدارين متوازيين ، جدار المسئولية الجماعية فى الدنيا .. وجدار المسئولية الفردية فى الآخرة .. وبهذا اختلف الإنسان عن البشر .

إن الدين يتضمن تكاليف تخص (الإنسان) باعتباره فرداً ، كما تخص (الناس) باعتـبارهم مجـتمعاً ، وليس هذا التـفريق بين الفرد والمجـتمع بوارد فى استـعمال كـلمة (البشـر) ، ففى إطار (البشـرية) لا تفـريق بيـن المستويات أو الأسماء ، إذا افترضنا أن الـبشـر عرفـوا شيئاً اسـمه (اللغة) ، وهو أمر غير بعـيد ، لأنهم كانوا مجتمعاً حيـوانياً ، كل فرد فيه ككل فرد ، وكل فرد بمثابة أية جماعة ، لا اعتبار للفروق الفردية .

لقد كان (البشـر) خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مـجرد مخلوقات مـتحـركة ، حـيوانيـة السلوك ، ولكنهـا تزداد فى كل مرحلة تعـديلاً فى سلوكهـا ، ونضجا فى خبـرتها ، وتلوناً فى طرائق التـفاهم اللغوى فيـما بينهـا . وربما كان هذا هو المقـصـود بسؤال الملائكة للرب ـ جل وعـلا ـ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[البقرة] .. كان هذا هو الواقع المشـاهد ، فـتـعـجـبت الملائكة من اسـتـخـلاف هؤلاء المفـسـدين المتوحشين !!

وطبيعى أن ندرك كذلك أن الزمن فى هذا الحال لم يكن له معنى أيضاً ؛

السَّنَةُ كالسَّنَة ، وألف سنة ، أو حتى مليون سنـة ـ كيوم واحد ، لا معنى لبدايتـه أو نهايته ، ولا وظيفـة له وقد عدم موضوعـه ، ومن المعروف أن بعض الكائنـات التى عـاشت فى الكهـوف المظلمـة فـقـدت قـدرتهـا على الإبصار، إذ كانت الحياة بالنسبة إليها ظلاماً فى ظلام .

وقـد عشنا فى حـياتنـا تجربة تقـرب إلينا هذا المعنى ، حـين ساقـتنا الظروف التعـيسـة إلى محبس (زنـزانة) فى الاعتقـال السيـاسى (عام ١٩٥٥) .. كـانت زنزانة مظلـمـة .. لم نكن ندرى فـيـهـا مـرور الأيام ، ولا حدود الشـهور ، فقد تساوى الليل والنهار ، وضاعت المعالم والآثار .

وبين أيدينا شواهـد قرآنية على صـواب ما نذهب إليه : ذلك أن قـصة الخلق التى جـاءت فى سـورة (ص) تعطيـنا الإشـارة الأولى إلى الدليل على تمادى العهود التى عاشتها البشرية فى ظلام الزمن السحيق ، أو فى زنزانة ذَيَّاك الزمن .. يقـول الله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)﴾ [ص] ، وقد ذهب أكـثر المفـسرين إلى أن هذا (الـبشر) هو (آدم) عـليه السلام ، وأن الله سـبحانه وتعالى كلّف بـعض ملائكته أن يجمـعوا له من تراب الأرض ، من جميع أخلاطه وألوانه ، كما ذكرت الروايات الواردة فى الطبرى ، نقـلاً عن الإسرائيليات ، ونقل عنه من جـاء بعده ، وأن الله خلق هذا البـشر ، وسواه ، ونفـخ فيه من روحـه ، فكان آدم الذى أسـجدت له الملائكة .

والواقع الذى عبّرت عنه الآيتان ـ فى نـظرنا ـ هو أن الله سبحانه خلق (أو أراد خلْقَ) البشر من الطين ، وأخبر مـلائكته بهذا الخبر ، أو الإرادة

العلوية : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا ﴾ . وهذه هى المرحلة الأولى فى بداية الخلق الإلهى . وكلمة (البشر) هنا لا تعنى فرداً واحداً ، بل هى - بحسب الأصل - تطلق على أكثر من واحد ، لدلالتها على الجنس ، وقد حدد القرآن الصورة الأولى لخلق الكائنات بأنها خلقت أزواجاً ، فقال سبحانه : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ ﴾ [النبأ] ، وذلك انطلاقاً من الأرض : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح] ، فمن الأرض كان انطلاق الحياة فى شكل أزواج متنوعات : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات] ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد] .

البرهان اللغوى

وتأتى بعد ذلك مرحلتان فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وهى آية مصدرة بأداة ظرفية زمانية هى (إذا) ، وهى ظرف لما يستقبل من الزمان ، ويمكن أن يكون هذا الزمان لحظة ، كما يمكن أن يكون دهراً طويلاً ، والقدرة التى تنجز هذا الخلق هى القدرة التى تقول للشيء (كن فيكون) ، أى : القدرة الكُنِّيَّة التى لا يحكمها الزمان ولا المكان .. بل هى التى خلقت الزمان والمكان ، ونحسب أن استخدام (إذا) فى هذا السياق لا يبعد عن أن يراد به ملايين السنين بحساب الزمن الدنيوى ، وإن كانت هذه الملايين لا تعدو أن تكون أياماً معدودة فى حساب الزمن الإلهى ، كما أنها مرت مجرد كتلة فى ظلام دائم ، لم تلمع خلاله أشعة العقل ، ولا أضواء المعرفة .

وقد استخدمت (إذا) فى القرآن للدلالة على المستقبل القريب والمستقبل البعيد سواءً ، فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ

(٤٨) ﴾ [المرسلات] لا تزيد فيه مساحة (إذا) الزمنية على لحظة ينطق فيها الأمر : (اركعوا) ، ولكن قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ** .. (٢٤) ﴾ [يونس] تمتد فيه المساحة إلى زمان غير معلوم ، وكذلك فى الآيات :

﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** (١) ﴾ [التكوير] ، و ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ** (١) ﴾ [الانفطار] ، و ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ** (١٣) ﴾ [الحاقة] .. تتراحب فى هذه الآيات مساحة الظرف إلى ما شاء الله ، وهو استخدام قرآنى مستقبلى .. تحسب أبعاده بالسنين المعروفة لنا ، فأما إذا عبرت عن المستقبل فى داخل الماضى السحيق فتلكم هى المشكلة التى يستحيل حسابها ، ومن هذا القبيل تأتى (إذا) فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ ظرفاً زمنياً تعبيراً عن إرادة أزلية تمضى فى تحققها عبر ملايين السنين ، تسوى ذلك المخلوق ، وهو جنس (البشر) ، ثم تزوده بنفخة الله الروحية ليكون عندئذ (الإنسان) الذى تسجد له الملائكة ، الإنسان الذى يدخل بوابة الزمان ، ويبدأ حضوره وحضارته .

ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة ، هى (الخلق ، والتسوية ، والنفخ) ، ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بث الروح فى الجسد ، فقد حدث ذلك فى **مرحلة (الخلق) الأولى** ، التى أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيوانى ، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر ، وطير وحيوان ، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق فى **المرحلة الثانية (بالتسوية)** أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله ، وهى مرحلة التعديل المادى أو الظاهرى ، وقد استغرقت ملايين السنين ، والله أعلم بتفاصيلها ، ثم جاءت **المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية ، وهى المتمثلة فى تزويد المخلوق السوى**

بالملكات والقدرات العليا ، التى جوهرها (العقل) ، والحياة الاجتماعية ثمرة العقل ، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء ، وبذلك اكتمل بناء (الإنسان) ، فكان (آدم) هو أول (إنسان) ، وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته .

ومما يستدل به على هذه المراحل وتكاملها استعمال القرآن لأداة التراخى (ثم) في ربط أجزاء الجملة في سورة السجدة ، مثلاً في قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ .. ۝٩ ﴾ [السجدة] ، والأداة (ثم) للترتيب مع التراخى ، وكأن استعمالها فى هذا السياق ترجمة لمفهوم الزمان المتطاول الذى عبر عنه الظرف (إذا) ، فى مقابل استخدام الفاء أو الواو فى ربط أجزاء أخرى من الآيات ، تعبيراً عن التعقيب أو مطلق الجمع[1] .

بل إن هذا التراخى يتجلى فى سورة (المؤمنون) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ .. ۝١٤ ﴾ [المؤمنون] ، ولنتأمل استعمال (ثم) فى الآيات ، بجانب استعمال (الفاء) ، فبين (الخلق) من الطين و (الجَعْل) ﴿ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ـ مسافة زمنية ، لا يعلمها إلا الله ، استغرقتها عمليات التسوية ، وهذا (الجَعْل) تعبير عن جانب من استكمال (الخلق) ، ثم تكون النطفة علقة ، ولعل تقدير ذلك تم فى زمان متطاول أيضاً .

---

(١) التعقيب تعبير عن تتابع الأحداث ، بعضها في إثر بعض دون فاصل طويل من الزمن ، وهو وظيفة (الفاء) العاطفة أصلاً ، ومطلق الجمع هو وظيفة (الواو) فهي لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً .

وتذكر الآية بعد ذلك عمليات تخليق الجنين ، وهى عمليات متتابعة لا يفصل بينها سوى أشهر أو أيام معدودات .. زمن قصير نسبياً .. بين العلقة والمضغة ، وبين المضغة والعظام ، وبين العظام واللحم ، وذلك كله معطوف بالفاء ، ويعود السياق بعد ذلك إلى استخدام (ثم) للتعبير عن طول الفترة الزمنية بين ما سبق ، وما سوف يأتى بعد : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ ، والمعنى التاريخى لإنشاء هذا الخلق هو النقلة من البشر إلى الإنسان ، وهو خلق آخر فعلاً ، إلى جانب احتمال أن يكون المراد هو المولود الجديد .

ويمضى السياق ملتزماً نفس الإيقاع البطىء : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** (١٥) **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** (١٦) ﴾ [المؤمنون] ، لقد عبرت (ثم) فى الآيتين الأخيرتين عن زمن طويل ، هو فى الآية الأولى (عمر الإنسان) الذى يعيشه حتى الموت ، الذى يضع نهاية للحياة المقدورة لذلك الكائن ، وهو فى الآية الثانية مدة ما بيننا وبين القيامة والبعث .

ولنقرأ أخيراً آية الأعراف ، قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** .. (١١) ﴾ [الأعراف] ، وهى آية تعبر عن مرحلتين هما : (الخلق والتصوير) ، وبينهما فيما نتصور آماد هائلة ، تعبر عنها الأداة (ثم) ، ويعطف القرآن خطاب الله سبحانه للملائكة باستخدام (ثم) ، وهو فى رأينا تعبير عن أن الأمر بالسجود لم يكن بعد مرحلة التصوير مباشرة ، وهو ما يعنى مرحلة التسوية .. بل جاءت قبله مرحلة (النفخ من روح الله) ، وقد أومأ إليها استخدامُ (ثم) فى صدر الجملة ﴿ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ ، دون أن يصرح بها ، لأنه لا سجود إلا لمن زود بروح الله .

وبرغم ذلك قد يعبر النص القرآنى عما شأنه التراخى ـ بالفاء ، فهو

يضمنها معنى (ثم) ، أو بتعبير أدق : يوظفها في موقع (ثم) ، كما جاء في قوله تـعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧** ﴾ [الانفطار] ، وقد يسوغ هذا التضمين أن المخاطب ـ وهو الإنسان ـ لا يرى فى ذاته سوى مخلوق مكتمل ، خلقاً وتسويةً ، وعـدلاً ، فهو يرى اندماج هذه المراحل فى ذاته ، ولذلك لاق أن يضمن (الفاء) معنى (ثم) المتراخية .

وقد تفـسر هذه المراحل فى سورة الانفـطار على أنها خاصـة بأحوال الجنين فى بطن أمـه ، كمـا يقـول الإمام القـرطبى : (**خَلَقَكَ** .. أى : قدر خَلْقَكَ من نطفة ، **فسوّاك** : فى بطن أمك ، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعـضائك ، **فعـدلك** .. أى : جعـلك معتـدلاً سوى الخلـق .. وقرأ الكوفيـون : عاصم وحمـزة والكسائى : **فَعَـدَلَكَ** .. مخَـفَفَـاً ، أى : أمالك وصرفك إلى أى صـورة شاء ، إما حـسناً وإما قبـيحاً ، وإمـا طويلاً وإما قصيراً) .

ولسنا مع هذا التـوجيه ، مع أنه يـحل مشكلة التراخـى مع الفاء ، لأن الأسلوب القـرآنى درج على استـخدام كلمـات الخلق والتسـوية والنفخ ـ خـاصة بأحـوال البشـر منذ وجـدوا ، إلى أن صـار البـشر سـوياً .. أى : إنساناً اصطفاه الله ، وناط به تحقيق رسالة العبودية لله رب العالمين .

ترى ؛ كم من الأجيال البـشرية لزم لعمليتى التـسوية ، والنفخ ، حتى كان آدم ذلك الإنسان الكامل الناطق ؟!

لا نبالغ إذا قلنا : إن ذلك اقتضى مئات الألوف من الأجيال ، وقد سجل كل جيل بصمته المتميزة ، على طريق الاكتمال ، ولا سيما فى مجال العقل، واللسان ، والجمال .

الفصل التاسع

برهان التكرار

الإنسان مرة أخرى

وضح لنا مما سبق أن (الإنسان) هو المقصود من التكليف الدينى ، وأن (البشر) وهم طلائع الخليقة ، لا مكان لهم فى عالمنا ، لأنهم بادوا ، ودرست آثارهم ، فلم تبق منهم سوى أحاديث وأحافير تدل على أنهم كانوا موجودين ، منذ عصور جيولوجية متقادمة ، فلما قضت إرادة الله بإيجاد هذا الخلق الإنسانى ـ قدر خلق آدم ، وهو مستوى خاص جداً من (البشر) ، مزود بأدوات كاملة من العقل واللغة والعاطفة ، وملكات الإدراك والضمير ، والإرادة ، والاستعدادات الفطرية والغريزية ، للتفرقة بين الخير والشر ، وكل ذلك ثمرة من ثمرات النفخة الإلهية التى أتم الله بها خلقه ، وهيأه ليعيش فى ضوء المعايير الدينية التى أرسل بها الأنبياء ، منذ آدم إلى محمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾ [آل عمران] .

ومقتضى ذلك أن النوع البشرى قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هى رتبة (الإنسان) باعتباره الطور المحسن من أطوار البشر ، والجيل المختار للمسيرة الجديدة على طريق التوحيد ومعرفة الله ، ثم أطلق على

أفراد هذه الرتبة : بنو آدم .

ولقد نجد فى القرآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا المذهب ، حين نجده محتفياً بالإنسان متابعاً لوصف كل أحواله ، فى ثلاثة وثلاثين موضعاً ، على حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد ، وهو سلوك واضح الدلالة على صدق التفرقة بين المستويين . ولننظر الآن إلى نصوص القرآن الواردة بشأن الإنسان ، بحسب ورودها فى ترتيب المصحف :

قال تعالى :

١ - ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ [النساء] .

٢ - ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس] .

٣ - ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ [هود] .

٤ - ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ [يوسف] .

٥ - ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] .

٦ - ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾ [النحل] .

٧ - ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] .

٨ - ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء] .

٩ - ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء] .

١٠ – ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] .

١١ – ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف] .

١٢ – ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

١٣ – ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحج] .

١٤ – ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان] .

١٥ – ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] .

١٦ – ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يس] .

١٧ – ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] .

١٨ – ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] .

١٩ – ﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [فصلت] .

٢٠ – ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت] .

٢١ – ﴿ إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى] .

٢٢ – ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزخرف] .

٢٣ - ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ [المعارج] .

٢٤ - ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) ﴾ [القيامة] .

٢٥ - ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة] .

٢٦ - ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) ﴾ [عبس] .

٢٧ - ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار] .

٢٨ - ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾[الانشقاق]

٢٩ - ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ [البلد] .

٣٠ - ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٦) ﴾ [التين] .

٣١ - ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] .

٣٢ - ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾ [العاديات] .

٣٣ - ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] .

هذه هى المواضع التى ذكر فيها (الإنسان) فى القرآن بصفات مختلفة، بين الخير والشر ، والقوة والضعف ، والإيمان والكفر ، والحكمة والحمق ، والعلم والجهل ، والطهر والدنس ، والعرفان والجحود ، وأخيراً فهو مستهدف دائماً لعداوة الشيطان .. هذا كله عن الإنسان .

على حين أن القرآن كله لم يذكر البشر بشىء من هذا أو غيره ، مع أن

كلمة (البشر) وردت فى القرآن مفردة ثلاثين مرة ، ثم ذكرت مثناة مرة واحدة ، أما (الإنسان) فقد ورد لفظه فى القرآن اثنتين وستين مرة، بالإضافة إلى ورود لفظة (الإنس) سبع عشرة مرة ، وجاءت لفظة (أناس) سبع مرات ، ولفظة (الناس) مائتين وأربعاً وثلاثين مرة ، ولفظة (أناسى) مرة واحدة ، فمجموع ورود لفظ الإنسان وأمثاله ثلثمائة وإحدى وعشرين مرة .

فإذا علمنا أن (الناس) قد خوطبوا فى القرآن بلقب (بنى آدم) ، وأن ذلك قد جاء سبع مرات فى القرآن ؛ إذا علمنا ذلك كله ؛ تأكد لدينا أن (الإنسان) هو المرحلة الأخيرة والحاسمة فى تاريخ الحياة على الأرض ، وأن وجود (البشر) إنما كان بمثابة المراحل التحضيرية لذلكم المخلوق الذى قضى على الأرض ملايين السنين بين عوامل التسوية ، وتحصيل خواص الجمال ، والكمال ، بروح من الله الذى قدر له أن يكون سيد الكون، حتى صار جديراً بأن يحمل أمانة الله على هذه الأرض ، ويتفرد بذلك من دون السموات والأرض والجبال جميعاً ، فكان قوله تعالى بشأنه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] .

لقد خفيت هذه التفرقة على أجيال العلماء من قبل ، سواء فى ذلك القدماء والمحدثون ، بعد أن طغى طوفان الإسرائيليات ، وأصبحت المصدر الوحيد للحديث عن العالم القديم ، والخلق ، حتى تصور العلمانيون وأحلاسهم وأشباههم أن الدين مناقض للعلم فى هذه القضية الخطيرة ، وأن الدين لا يملك سوى بعض القصص الأسطورى ، وبعض التصورات الخرافية ، وأن الدين بذلك يقف أمام حائط مسدود ، يجب تجاوزه للحاق بركب العلم والتقدم .

وها نحن أولاء نجد الدين فى نصوصه الحقة (القرآن) يسبق العلم سبقاً بعيداً ، ويحدد هوية الحياة على الأرض تحديداً لا يتصادم مع العقل والرؤية العلمية اللاحقة .. بل إنه يتوافق مع الحقائق العلمية ، ويدعو إلى الاعتماد عليها فى فهم قضية (بدء الخليقة) ، كما سبق أن قرأنا ذلك فى آية سورة العنكبوت : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] ، وبذلك يكون العلم بياناً لنصوص القرآن ، فيما توصل إليه من حقائق ، كما أنه فى طريقه إلى موافقة القرآن فى كل ما قرر من نظريات تحتاج إلى مزيد من البحث والتحقيق .

آدم أبو الإنسان

هل آن الأوان لنجيب عن السؤال الذى طرحناه من قبل ، وهو : هل كان وجود هذه الخليقة البشرية شيئاً واحداً فى الأرض .. أرادته القدرة الإلهية، وتابعته فى مراحله المتطاولة ، وسارت به حتى انتهى إلى آدم عليه السلام ؟.. أم كان وجود الخليقة فى صورة مجموعة من الأشكال المتنوعة أو المتقاطرة على الساحة الأرضية عبر الوجود الزمنى الهائل ، وكان آدم أحد هذه الأشياء .

إننا نبادر إلى نفى الشق الثانى من السؤال نفياً قاطعاً لأسباب تفرض نفسها : أن البشرية تعنى فى المفهوم الدينى القرآنى جنساً واحداً ، لا عدة أجناس مقتبس بعضها من بعض على ما قررته النظرية الداروينية .. التى أسقطها العلماء فى الشرق والغرب على السواء .

وقد تميزت هذه الخليقة بصفات ثابتة فى كل المراحل .. مشتركة بين أفرادها وأجيالها .. مختلفة عما عرفت به أجناس الخلائق الأخرى من

خصائص وميزات وصفات ، وهو ما يعنيه قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾[النور] ، والعلم يؤكد صدق هذه الآية بتقريره أن البشر منذ وجدوا كانوا يسيرون منتصبي القامة ، بعكس الأجناس الأخرى،والاختلاف فى هذه الخاصية يعنى تعدد أجناس الخلق ، وهو الحقيقة المقررة حتى الآن فيما نشاهد من أصناف الخلق ، ما دَقَّ منها وما جَلَّ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة أزلاً أنه ﴿خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ﴾، وأن هذا البشر سوف يتعرض للتسوية والتعديل فى أطوار نضجه ، حتى يكتمل ، وحينئذ يتعين على الملائكة أن تسجد له ، فلو تعددت الأنواع الخلقية لما تقررت حكمة الخالق فى أمره بالسجود لهذا المخلوق بالذات ، دون غيره من أجناس الخلق الأخرى ، فهو متعين منذ كان طيناً ، لم يخف أمره على ملائكة الرحمن ، وهى تتابع ما يطرأ عليه من تغير وتنام عبر الدهور ، حتى أصبح بشراً سوياً .. أى : إنساناً متكاملاً ، هو آدم عليه السلام ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ .. (٧٤) ﴾ [ص] .

إن منطوق القرآن ومفهومه يؤكدان وحدة الخلق البشرى الذى بدأ بأول بشر خلق من طين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٩) ﴾ [السجدة] ، ولا مانع فى نظرنا من أن نتصور البشر الأول بلا وظيفة سمع ولا بصر ، ولا فؤاد ، ثم كان ذلك فى مراحل مختلفة على طريق استكمال مقومات هذا الخلق البشرى ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾(١)

(١) يجب أن نلاحظ الفرق بين الخلق وهو الإيجاد من عدم ، والجعل وهو تمكين الحاسة من أداء وظيفتها .

وقد سبقت الإشارة إلى مغزى هذه المرحلة ، واللغة من أخطر مقومات هذا الخلق ، ويبدو أنها بلغت درجة من الكمال فى المرحلة الآدمية الحاسمة ، حتى تفوق آدم على الملائكة فى أول اختبار .

لقد كانت ملحمة هائلة !! تلك التى استغرقها خلق البشر وتسويته وتزويده بالملكات العليا التى أصبح بها (إنساناً) تتألق فيه كمالات النبوة، فاختاره الله واصطفاه كما قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ .. (٣٣) ﴾ [آل عمران] ، فصار آدم نبياً ، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه] .

لقد استغرقت هذه الملحمة ـ كما سبق أن قلنا ملايين السنين ، ولكنها مرت ظلاماً فى ظلام ، أو : غيباً فى غيب ، حتى أذن الله للصبح أن ينبلج ـ فأشرق الإنسان من سلالة البشر ، واكتمل الخلق ، وجاء آدم !!

ليس غريباً أن نتصور ـ بناء على هذا ـ أن آدم جاء مولوداً لأبوين(١) ، وأن حواء جاءت كذلك ، على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية ، ورفض عنيف !! وبلا تفكير !!

إن هذا التصور لا يتصادم فى رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين ، ذلك أن الخلق الذى بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطينى ـ كان هدفه النهائى والوحيد خلق (آدم) ، وكل ما مضى من أحداث بين التاريخين ـ إن كان ثمة تاريخ ـ إنما هو وقائع بناء جسد آدم ، وعقله ، وروحه ،

(١) ذكر الشيخ رشيد رضا أن وثنيى الهند يزعمون أن لآدم أماً ، ولها فى مدينتهم المقدسة (بنارس) قبر عليه قبة بجانب قبة قبره (المنار ٨/٣٠٨) .

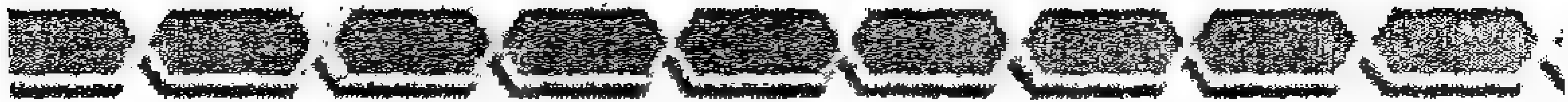
وملكاته ، وخصائصه ، وقد تم ذلك كله فى غيبوبة الزمان ، حيث استوى الصفر والمليون ، فما هى إلا سِنَةٌ استمرت بضعة ملايين من السنين حتى استوى الإنسان .. (آدم) الذى نبت فى التراب ، وانبثق من الأرض ، لقد تبددت الأحداث والوقائع ، ولم يبق منها سوى الحقيقة الترابية .

وهو تصور ليس غريبا ، ولا بعيداً عن الواقع الذى قرره القرآن ـ مثلاً ـ عن الآخرة حين قال تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات] .. أى : إن الزمان يكون قد انطوى ، وسقطت فى جُبِّه كل الأحداث مهما تعاظمت ، واستغرقت مئات السنين ، وهو كذلك ما كرره القرآن فى قوله تعالى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)﴾ [المؤمنون] .

وبهذا تكون الحقيقة الترابية أثبت الحقائق وأبرزها فى وجود كل مخلوق يدخل فى مضمون الضمائر (أنا ـ ونحن ـ وأنت ـ وأنتما ـ وأنتم ـ وأنتن ـ وهو ـ وهى ـ وهما ـ وهم ـ وهن) ، وخبرها جميعاً (من تراب) : ﴿صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ .



وقائع القصة



الفصل الأول

البشر واللغــة

كـانت اللغة هى مـعجـزة الخلق التى أثمـرها تزويد المخلوق البشـرى بالملكات العليا ، وفى قمـتها : العقل ... وإذا كان البشر قـد عاشوا ملايين السنين حتى تتم عـملية التسوية ، والـنفخ الإلهى ـ فإن من أخطر مظاهر الكمال الخِلْقِى أن يدرك الأفراد معنى العلاقـات المتبادلة فيما بينهم ، وهى علاقات لا يمكن أن تتـحقق إلا من خلال اللغة ، ونحن نستـخدم (اللغة) هنا بالمفهوم العام الذى يشمل الجـاذبية الجنسية ، وهى أقدم لغة وصلت ما بين طرفى النوع البشرى من أول لحظة ، كما يشمل التدافع والاحتكاك المادى ، والإشـارة والصوت المبـهم .. إلخ ، وعلى طريق النضج البـشرى بدأت الجـوارح تصل مـا بين الفـرد والفـرد ، ومـا بين الذكـر والأنثى ، ونحسب أن صوت الجنس كان أقدم الأصـوات التى صدرت عن البشر أو صرخوا بها .

كما بدأت وظائف الجـوارح تتحدد فى سلوكيات مـادية ، قابلة للترقى والتطور والتنويع ، ومـا أشبـه البـشر آنذاك ـ والزمـان طفل لم يتجـاوز بضـعة مـلايين من السنين ـ بـأطفالنا الآن فى أيـامهم الأولى ، وهو مـا عبرت عنه الآية الكريمة : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل] .

ومن المسلم به علمياً أن وجود البشر كان مسبوقاً بوجود الكائنات الأخرى من الطير والحيوان فى البر والبحر ، وكانت هذه تشكل عالماً من الكائنات بأشكالها وأنواعها ، كما كان لها تأثير مباشر على الوجود البشرى ، فمنها كان قوت البشر ووسائل عملهم .. بل تولى بعض الطيور مهمة تعليم هذا المخلوق ما هو بحاجة إليه من سلوكيات ، ودور الغراب فى قصة ابنى آدم ذو دلالة ظاهرة فى هذا المجال : ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** .. (٣١) ﴾ [المائدة] ، أى : إن الإنسان فى مطلع فجره لم يكن يدفن جثث الموتى من جنسه ، حتى شاهد ـ وهو فى قمة مأساته ـ الغراب يلقنه درس الدفن ، بعدما بلغ سن الرشد ، ودخل فى المرحلة الآدمية الجديدة ، ولا يبعد أن نتصور أن البشر كانوا فى بداية وجودهم ، وقبل رشدهم يتآكلون ويتفارسون .. أى : يأكل بعضهم بعضاً .

ولو أننا تصورنا حياة الصدام ، والصراع بين البشر وسائر أجناس الخلق ـ فإن ذلك يعنى أن العلاقات بين الموجودات والبشر كانت هى القوت اليومى ، بوجهيها : السلبى والإيجابى .

وقد كانت هذه العلاقات تتنامى دائماً ، كماً وكيفاً ،، وهى تحدث بصماتها ، وتحفر فى العقل البشرى آثارها ، وكان البشر قد ميزوا بالفؤاد ، أى : بالعقل ، وهو ما يعنى أنهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بالتجربة فى ذاكرتهم ، ثم صاروا يفيدون من رصيد التجارب المتراكمة ، فى الحركة ، وفى الصوت .

لقد كانت للطير أو للحيوان طريقته التى لا تتغير فى التعامل مع جنسه، وغير جنسه ، ولكنه يأتى من ذلك ما يوصف بالتلقائية الأبدية ،

والثبات الغرزى المتواصل عبر ملايين السنين ، وإن حدث تغير أحياناً فى الشكل ، أما رصيد التجارب البشرية فقد كان فى نمو دائم ، وتغيير مستمر ، رغبة فى تحسين الأداء ، وتمكين الجنس البشرى من السيطرة على سائر الأجناس ، ومن هنا كان التوجه إلى استخدام الأدوات الحجرية لمضاعفة القدرة ، وتأمين السيطرة .. هذا فى جانب الحركة .

فأما فى جانب الصوت فقد كان أغزر مادةً ، وأكثر حدوثاً إذ كانت الضوضاء ـ وما زالت ـ هى غذاء الحياة وقوتها ، ودليلها ، سواء صدرت الضوضاء عن البشر ، أم صدرت عن المادة المتعلقة بالحركة ، وليس بوسع مخلوق أن يأتى بحركة إلا مقترنة بصوت ، ينبعث من أثر احتكاك المادة بعضها ببعض ، أو يصدر عن الإنسان ، وهو يتعامل معها ، ثم يتحول الصوت إلى مقطع ، ثم إلى كلمة ، ثم إلى درجات من التركيب المتنوع ، ثم تتطور هذه الحالة التى اقترن فيها الصوت بالحركة ، ليصدر الصوت مستقلاً عن الحركة ، وقد يكون فى هذا الحال مجرد صوت ، وقد يرتبط بهدف حيوى ، أو تعبير عاطفى ، وهكذا نشأت اللغة البشرية ، مع التجاوز البالغ عن تفاصيل كثيرة .. كثيرة جداً تتعلق بأوعية الزمان والمكان ، واحتمالات الفعل والترك ، والإيجاب والسلب ، والعطاء والمنع ، والذكاء والغباء ، والتناقض والاستواء .. الخ .

ولا شك أن البشر كانوا محوطين بأصوات أخرى تصدر عن الطيور والحيوانات ، ولهم من دون الخلائق جميعاً قدرة على تقليد الأصوات ، ونادر من الطيور ما عرف بتقليد الأصوات (الببغاء) ، أما الإنسان فقد لذ له دائماً التخاطب مع تلك الكائنات ، أو التجاوب معها من باب التسلية أو الترويض ، وقد لاحظ أولئك البشر أن لكل كائن نوعاً من الضوضاء

يستخدمه فى قيادة القطيع ، أو نداء الأنثى ، أو تحذير الصغار ، أو مواجهة الأخطار ، فلم لا يكونون كذلك ، وهم يملكون قدرة هائلة على التنويع ، وهم ـ كذلك ـ يعقلون المعنى الوظيفى للصوت حين ينطلق بوجه من الوجوه ، ولم لا يكون تعاملهم مع هذه الكائنات من قناة اللغة ، بحيث يضعون لها أسماء تميزها عند التعامل معها .

هكذا تخلقت اللغة خلال ملايين السنين ، حتى صارت مكونة من أصوات متشخصة ، وكلمات متخصصة ، وحتى أصبحت تضم الألوف من الكلمات .. بل حتى تنوعت فبلغت عدة اللغات أكثر من ألفى لغة ينطقها الإنسان الآن ، وكلها مبنية على عدد محدد من الأصوات هو غاية ما يصدره جهاز النطق ، لا يزيد ولا يتنوع .

لقد أولع كثيرون بالبحث عن أصل اللغة ، فمن قائل : إنها من وحى الله .. نزّله على بعض عباده من الأنبياء ، كآدم ، وإسماعيل !! وللجاحظ هنا مقولة : إن الله فتق لهاة إسماعيل بالعربية على غير مثال سبق (مختارات فصول الجاحظ / مخطوط بدار الكتب) .

وقائل : إنها مواضعة حددت لكل شيء اسمه المتفق عليه ـ وهو قول ابن جنى فى (الخصائص ١ / ٤٤) .

وقائل : إنها محاكاة لأصوات الطبيعة !!

وقائل : إنها نتيجة انفعالات تعرض لها الإنسان !!

وتصور أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ـ رحمة الله عليه ـ (أن الكلمات الإنسانية الناشئة كانت كثيرة المبنى ، قليلة المعنى ، فالمجتمع جماعة من الشباب يمرحون ، ويلعبون ، ويستمتعون بالنطق ، دون هدف معين

سوى المتعة واللعب بألسنتهم ، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم ، أى : إن اللغة نشأت فى صورة لعب ممتع ، لا يهدف إلى إيصال معنى إلى السامع .. بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة .. فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار ، ولكن عنايته كانت مقصورة على الغرائز والعواطف ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليستلفت انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغنى غناءً متواصلاً ، لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغنى فى أثناء صيده ، وفى حربه ، وفى كل ما يقوم به .. غناءً لا كغنائنا ـ يهدف إلى الطرب ـ وإنما هو تصويت منسجم تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة ، وأصبح ذا هدف فيما بعد، واستغل فى التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير أو شر(١).

والواقع أن كل افتراض لتفسير نشأة اللغة له نصيب ، ولو ضئيل ، من الصواب ، فكل الآراء تجتمع لتنسج ثوب اللغة فى صورة مكتملة ، غير أنها جميعاً وقعت فى خطأ مشترك هو خلطها بين البشر والإنسان من ناحية ، وتصورها أن اهتداء الإنسان للغة كان خلال الفترة الزمنية القريبة التى عاشها الإنسان منذ آدم عليه السلام باعتباره أول المخلوقات.. من ناحية أخرى .

---

(١) دلالة الألفاظ صفحة ٢٣ وما بعدها .

والحق الذى نؤمن به هو أن اللغة ظاهرة بشرية معقدة شديدة التعقيد، ظهرت فى حياة البشر على مدى الملايين من السنين التى عاشوها قبل ظهور آدم عليه السلام ، وقد بلغت درجة من الكمال باعتبارها أداة تعامل على مشارف العهد الإنسانى الآدمى ، حتى تحملت ما دار من حوار بين الله وملائكته ، وبين الله وإبليس ، وبين الله وآدم وحواء ، بكل ما حوته هذه الحوارات من معان دقيقة وراقية .. أقرب شىء إلى التجريد ، والتجريد مستوى من الرقى اللغوى لا تعرفه سوى اللغات الحضارية الناضجة التى تجاوزت المحسوس إلى المجرد .

بل إننا حين نقرأ قصة ابنى آدم (هابيل وقابيل) يبهرنا فيها غزارة التجريد فى المعنى ، وثراء اللفظ ، حتى إن الإنسانية ما زالت دون بلوغ الأفق الأخلاقى والقيمى الذى عبرت عنه تلك القصة ، مما يدل على درجة من الحضارة الدينية ، بلغها الإنسان فى ذلك الزمان ، بعد أن كافح ملايين السنين فى مرحلته البشرية .

ولنقرأ نص القصة . يقول الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة] .

لقد ذكـرت القصة : القربان ، وهـو معنى دينى خاص ، وذكرت قـبول القـربان أو عـدم قبـوله ، ودلالة ذلك عـلى التـقوى ، والتـهـديد بالقـتل والتسـامح فى مواجهـة التهديـد ، خوفاً من الله ، رب العـالمين ، وذكرت : مفهـوم الإثم ، ومضـاعفـته ، وعاقبـة الظلم ، وهى النار ، وسيطرة النفس الأمارة بالـشر على القـاتل حتى قـتل أخاه ، وصـار بذلك خاسـراً دنياه وأخراه ، وأخيراً ذكرت الدرس الذى تلقاه القاتل من الغراب ، فتحول فعل الطير إلى معنى كبير من لوم النفس ، والندم العميق .

وكل هذه المعـانى الـدينيـة ذات دلالة على الرقى النـسـبى الذى بلغـه الإنسان ، لعهـد آدم .. لقد اجتازت اللغة مـرحلة التعبير المادى فـأصبحت معبرة عن المعانى الغـيبية .. أى : إنها عبرت مستوى الحـقيقة إلى المجاز ، وهو تقدم خطير ، لم تبلـغه البشرية إلا عبر مـلايين السنين ، وقد توجت هذه المرحلة باصطفـاء آدم ، نبياً يحـمل رسالة الله إلى بنيـه ، وهم الجيل الأول من أجيال الإنسانية .

ومن المعانى الغيـبية المجردة ذات الدلالة العميقـة على مذهبنا هذا ـ ما جـرى على لسـان إبليـس وهو يغـرى آدم وزوجـه بالأكل من الشـجـرة المحرمة ـ قال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف] !! فـمـتى عرف آدم وزوجـه مـعنى الخلود؟ وكيف لهمـا أن يتخيلاه ، وهو معنى مـرتبط بواقع لم يحدث من قبل ، على فرض أنهما أول المخلوقات البشرية ؟؟ ونعنى به واقع (الموت) وهو ضد الخلود ؟

إن ذلك يؤكد أنهما عاينا أجيالاً سابقة حصدها الموت ، وابتلعها الفناء ، ولعل الخلود أو البـقاء كان حلمـاً يراودهما ، فـجاءهما الشـيطان من هذا

الباب وقد عرف حلمهما ، أو نقطة ضعفهما ، فقاسمهما : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] .

إننا لا نشك فى أن آدم قد صنع على عين الله ، وأنه ظفر برعاية ربانية استثنائية جعلته فى ذاته معجزة إلهية ، وكان آدم بذلك مدداً للمرحلة القادمة التى بدأت به مع زوجه حواء ، ومن خلال آدم بدأت الإنسانية مسيرتها بخطوات قاصدة راشدة ، على حين بادت الموجودات البشرية الطليقة الشاردة لتبدأ المرحلة الجديدة .. **مرحلة التكليف الدينى .. بعبادة الإله الخالق الواحد** ، بعد أن تم للإنسان التعرف على الكون من حوله ، من خلال الأسماء التى تحدد وجود كل شىء والتى أعانه الله سبحانه على استيعابها .

ونعود إلى حديث اللغة فنقول :

لقد اقترنت نشأة اللغة بمجموعة هائلة من الصدف العشوائية ، يجل حصرها ، وكان المخلوق البشرى أشبه بطفل جلس إلى جهاز كمتور(١) ضخم ذى مفاتيح كثيرة كثيرة ، فأخذ الطفل فى البداية يلمس هذه المفاتيح ، ويرقب أثر لمساته ، وكلما وجد أثراً على شاشة الجهاز كرر اللمس ليستمتع به أو بغيره ، حتى تكونت بينه وبين الجهاز أُلْفَة أغرته بالمزيد ، فمضى يستخدم خبراته المثبتة نتيجة التكرار ، ويبنى تجارب أخرى مركبة من تجاربه البسيطة ، إلى أن سيطر على الجهاز مع تقدمه فى العمر ، وصار به خبيراً .. فكذلك الإنسان الذى ورث التراث البشرى ، وتألقت فى شخصه كل المواهب البشرية ، وزاده الله مدداً وتعليماً ، فكان آدم عليه السلام العلامة الأولى لبدء عهد جديد ، هو عهد الإنسان المتدين : آدم وبنيه .

---

(١) الكمتور : نحت عربى – للمؤلف – من كلمة كمبيوتر .

وبقى سؤال لم يطرحه أحد ممن تناولوا هذه القصة فى القديم والحديث ، وهو : من أين جاءت تسمية آدم ؟!

والاسم رمز المسمى ؛ فهل يمكن أن يطلق على آدم هذا الاسم دون أن تكون البشرية قد قطعت شوطاً هائلاً فى الرقى اللغوى قبل مرحلة الإنسانية الآدمية ؟ وإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١)﴾[البقرة]ـ فهل لا يوحى منطوق الآية على هذا النحو بأن الساحة كانت حافلة بأسماء كثيرة لموجودات مادية ، أو أسماء لمعان مجردة، وأن حصيلة ذلك كانت فى عقل آدم؟ أو استطاع آدم أن يحصلها!!

قد يقول قائل : إن اسم (آدم) هو اختيار الله ، أطلقه على أول خليفة فى الأرض !!

ولكن التناسب الذى نجده بين الاسم والمسمى .. أى : بين معنى كلمة (آدم) والمادة التى ينتمى إليها وهى (أديم الأرض) ـ هذا التناسب لا يمكن أن يتصور حدوثه على سبيل الصدفة أو الفجاءة ، فالفجاءة خروج على سنة الله فى الخلق والتسوية والإبداع ، وهو آيات العظمة الإلهية ودلائلها . فلم يبق إلا أن نفترض مستوى من النضج اللغوى بلغته البشرية فى أواخر مرحلتها ، وفى بواكير العهد الإنسانى ، وهو ما يعنى أن العربية قديمة .. قدم التاريخ الإنسانى على هذه الأرض .. على الأقل .

لقد زعم العبرانيون أن لغتهم هى أقدم اللغات وأصلها وهو ما لم يسلِّم به أحد من علماء اللغات لانعدام الدليل على صحة مقولتهم ، أما نحن فنرى ـ انطلاقاً من ملاحظاتنا السابقة ـ أن العربية هى الأصل والأقدم ، ولذا كان اختيار الله لها فى كل ما دار من حوار جرت به أحداث هذه القصة .

الفصل الثانى

الإنسان والملائكة

الملائكة عالم من عوالم الكون التى برأها الله ، خلقهم من مادة النور ، بهذا جاء الحديث الشريف برواية أحمد ومسلم رضى الله عنهما : (**خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق الإنسان مما وصف لكم)** ، وليس بلازم أن نبحث فى ماهية هذا النور ، وهل هو النور الذى نألفه من مصدر كالقمر ، أو الضوء الذى عهدناه من مصدر الشمس ، أو هو نور آخر مختلف العناصر والأطياف لا ندرى كنهه ؟ ويكفى أن نذكر قياساً يَقِفُنا عند حدود أقدارنا ، فقد خلقنا الله من تراب ، وشتان ما بين هذا التراب واللحم الآدمى فى الشكل ، وإن اتحدت عناصرهما عند التحليل، فالمسافة هائلة لا يمكن للعقل أن يقطعها ، وكذلك الملائكة .. هم من النور ، ومع ذلك نتصور أن هيئتهم التى خلقوا عليها بعيدة جداً عن مادة النور التى نألفها ، وكل ما نملكه هو أن نؤمن بهم كما أخبر الله عنهم، وكما طلب منا الإيمان بهم ، فهم ملائكة الله وجنده ، وهم جزء من عالم الغيب الذى حجبت عنا حقيقته ، واستحالت علينا رؤيته ، ولعلنا نتذكر هنا أن البشر قد كانوا فى أقدار الخلق هم العالم الظاهر ، فى مقابل العالمين المخلوقين الخفيين : عالم الملائكة وعالم الجن ، وما شاء الله من خلق لا نعلمه .

ونحن من خلال الدين ندرك الدور الذى تؤديه الملائكة فى عالمنا

الإنسانى ، فمنهم ملهمون بالخير ، ومنهم حفظة .. سفرة .. كرام كاتبون، ومنهم حملة العرش ، ومنهم ملائكة السماء والسحاب والمطر والأرزاق والأقدار ، ومنهم الموكلون بحياة العباد وموتهم .. إلى ما لا يحصى من مهمات خصهم الله بالقيام عليها فى إدارة الكون ، فى السموات والأرض : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء] .

علاقة الإنسان بالملائكة

بدأت علاقة الإنسان بالملائكة على مشارف المرحلة البشرية ، وذلك حين أعلم الله الملائكة أنه خلق أو أنه يريد خلق (بشر من طين) ، وإعداداً لهم فى مواجهة ما سوف يحدث من متغيرات على ساحة الأرض ، وقد اختارها الله لإيجاد هذه الخليقة البشرية ، بعد أن جعلها مهداً ، وكان البلاغ الإلهى منطوياً على جملة من العناصر المستقبلية إضافة إلى ما كان منجزاً منه .. كان (خلق البشر) قد أنجز ، أو هو بسبيله إلى الإنجاز ، وهو دلالة الجملة الأولى : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً ﴾ ، ثم جاءت الأمور المستقبلية فى شكل هذا الأسلوب الشرطى . ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .. وكأن الله يريد من الملائكة أن تراقب ما يحدث من تغيرات فى أحوال هذا المخلوق الظاهر وصفاته ومقوماته ، حتى يسجدوا له كما أمرهم ، إذعاناً لأمره ، وإعظاماً لروعة إبداعه ، ومضت ملايين السنين ، وطحنت عشرات الألوف من الأجيال ، وربما مئاتها فى عملية التسوية والتزويد بالملكات العليا ، والملائكة تراقب أحوال ذلكم المخلوق وتحركاته ، حتى آن أوان السجود .

كان المدخل إلى معرفتهم بأن السجود قد آن أوانه خطاب الله سبحانه لهم بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] وهو خطاب يتضمن إخبارهم بأن التسوية قد تمت ، وقد صار البشر مزوداً بالنفخة من روح الله ، وكان لهذا القول وقع المفاجأة على أسماعهم ، فهم يتابعون منذ ملايين السنين أحوال هذا المخلوق (البشر) ، ويعاينون من شئونه ما يحيرهم ، ولذلك بادروا إلى سؤال المولى عز وجل : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. (٣٠) ﴾ [البقرة] ، وكأنهم يقولون لربهم : أهذا هو المخلوق الذى أمرتنا بالسجود له ، حين أخبرتنا بخبره منذ ملايين السنين ؟ لقد راقبنا أحواله منذ ذلك العهد السحيق ، فما رأينا منه غير الإفساد فى الأرض ، وسفك الدماء ، وهم يشيرون بذلك إلى السلوكيات الحيوانية التى كان عليها البشر فى مختلف مراحل تسويتهم ، حتى اكتمال ملكاتهم بالنفخة الإلهية وثمراتها .

ويحلو لبعض المفسرين ـ أو لجمهورهم ـ أن يفترضوا أن الملائكة كانوا يرون أنهم جديرون بهذه الخلافة دون البشر ، وهو افتراض لا يقبله العقل ، فقد كانوا يتمتعون بميزات الشهود والقرب من الله سبحانه ، وهى مرتبة عليا فى سلم المخلوقات ـ لم يبلغها غيرهم من الكائنات الأخرى !! إن الكون كله صفحة مبسوطة بين أيديهم وأنوارهم ، يرتادون آفاقه ، ويجوبون أنحاءه ، ويعلمون من أمره ما أذن الله لهم بعلمه ، وأين هذا البهاء والسناء من أحوال ذلك المخلوق الحيواني ، اللازق بالأرض ، النابت من التراب ، المعربد فى ممالك الطير والحيوان ، السافك لدماء جنسه وغير جنسه ؟!

فما الذى تتمناه الملائكة أكثر مما هى فيه من اتصال بالملأ الأعلى ؟..

إن معنى سؤال الملائكة لا يتضمن رغبتهم فى تلك الخلافة ، أو حسد البشر عليها .. بل هو تعبير عن استغرابهم لما يتوقعونه من استمرار الفساد ، وتزايد التشويش فى الأرض على تسبيحهم وتحميدهم وتقديسهم لجلال الله وعظمته ، فموقع الجملة الملائكية : ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ ـ موقع الحال ، أى : إننا غارقون فى أنوار التقديس، فى حين أن هؤلاء والغون فى بحار الدماء ، لا يعرفون ديناً ، ولا يعبدون إلهاً .

وقال الله ﴿ **إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ وسكتت الملائكة ..

ونبادر هنا إلى تسجيل ملاحظة على عبارة الملائكة : ﴿ **وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ فهى إشارة إلى انتشار جرائم القتل فى تلك العهود بين البشر ، ولم يكن قتل قابيل لهابيل إلا استئنافاً لسفك الدماء فى العهد الإنسانى ، عهد التكليف بعبادة الله وحده ، بعد انقراض بقية البشر ، وانتهاء العهد البشرى الذى لم يعرف تكليفاً ولا تلقى رسالة ، ولا اتبع ديناً .

فهذه الجريمة كانت أولى الجرائم فى العهد الإنسانى ، وتميزت بالاهتداء إلى دفن الموتى من بنى آدم لأول مرة ، بعد أن كانت الجثث تترك فى العراء كسائر الحيوانات النافقة ، تأكلها الضوارى ، أو تتآكل .

وقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه البخارى والنسائى عن مسروق عن عبد الله : (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، وذلك أنه أول من سن القتل) ـ يشير أيضاً إلى موقع ذلك الجرم من المسئولية ، فقبل ارتكاب هذه الجريمة لم تكن هناك مسئولية عن قتل النفس ، لأنه لا مسئولية إلا بعد إرسال الرسل ، وقبل آدم لم يكن رسول ولا دين ، فلا مسئولية ، وبعد آدم بدأ العهد الإنسانى فكانت المسئولية الدينية ، فتحمل ابن آدم الأول وزر قتل أخيه ، وعليه كفل من دم كل نفس

تقتل ظلماً ، لأنه أول من سن القتل ، أى : هو أول من خرج على الدين ، واتخذ لنفسه سنة أخرى ، هى سنة الظلم والقتل ، لا سنة الدين والعدل ، وفى الحديث : (**من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**) .

لقد قال الله سبحانه للملائكة : ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ ومضمون هذا الخبر أمر لهم بالسكوت ، فسكتوا ، ودارت الأقدار على نهج المشيئة ؛ وبدأ الدرس الأول ، أو الرسالة الأولى فى تاريخ الإنسانية : ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ .. وحتى هذه اللحظة لم تكن الملائكة تعلم : مَنْ ذلك الذى جعله الله من بين البشر خليفة فى الأرض ؟!! ولم يكن آدم قد ظهر على المسرح ، فاصطفاؤه كان فى علم الله وحده .. وهم معذورون لأنهم لا يرون فى تلك الخليقة إلا الجانب السلبى ، أما الجانب الإيجابى فمحجوب عنهم ، ولم يكشف الله لهم شيئا من أسراره .

وجاء وحى الله بالرسالة والاصطفاء إلى آدم ، ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ وهذه أول مرة يذكر فيها لفظ (آدم) ، وتعليم الله له هو فحوى رسالته التى لم تذكر إلا فى هذه الآية ، وهى آية لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** (٣٣)﴾ [آل عمران] .

إن آدم رسول مصطفى من الله ، تماماً كنوح وإبراهيم ، ولقد كانت لنوح ملحمة كبيرة تحدث عنها القرآن فى أكثر من موضع ، وكانت لآدم ـ قبل نوح ـ ملحمته الكبرى التى بدأت بهذه اللمحة الإلهية ، فقد علمه ما لا تعلم الملائكة .. علمه الدين ، والرسالة التى سوف يبلغها لبنيه ، وهو ما

بدا متألقاً فى الحوار الذى دار بين ابنيه متضمناً كل المفاهيم التوحيدية ، وأمهات الأخلاق الدينية ، وتلكم هى الأسماء التى تعلمها آدم عن ربه . ولأمر ما حَرَصَ القرآن على أن يؤكد أنه تعلم ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ، فلعل آدم كان يعرف بعض الأسماء فتولى الله سبحانه تعليمه كل الأسماء ، فيما يتصل بالمهمة التى سينهض بها ، خليفة فى الأرض ، ومن بين الأسماء التى تعلمها أسماء الملائكة المشاركين فى هذا الحوار ، وقد تضمن القرآن بعض هذه الأسماء فتعلمها المؤمنون من الوحى .

كان اصطفاء آدم للرسالة الإنسانية الأولى غيباً محجوباً عن الملائكة ، لا يعلمه إلا رب العزة ، وكانت الأسماء التى تعلمها متعلقة بالأمانة التى ناطها الله بآدم وذريته ، وهو ما لم تعلمه الملائكة من قبل .. إنها بداية عهد جديد ، وإشراقة جيل الإنسان على أنقاض الركام البشرى ، وحين عرض الله سبحانه هذه المضامين على الملائكة : ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة] .

ولا مانع من أن يشار إلى المعروضات الماثلة فى الموقف بإشارة العقلاء (هؤلاء) ، لأن الأسماء تتعلق بأشخاص وأشياء تفرد آدم بعلمها ، وأقرت الملائكة بأنها لا تعلم إلا ما سمحت به من قبل مشيئة الله ، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة] .

ووضح فى الموقف تفوق آدم ، واختصاصه بالرسالة والاصطفاء ، وهنا حانت لحظة السجود لآدم ، تنفيذاً للأمر الصادر منذ بضعة ملايين من السنين .

فسجود الملائكة كان فى تقديرنا سجوداً لآدم النبى المصطفى .

السجـود للنبـى الإنسـان

ورد موضـوع السجود لآدم فى سـبع صور من القـرآن ، هى بترتيب النزول :

١ - السورة السابعة والثلاثون (ص) : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ [ص] .

٢ - السـورة الثـامنة والثـلاثون (الأعـراف) : ﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَـوَّرْنَاكُمْ ثُـمَّ قُلْنَا لِلْمَـلائِكَةِ اسْجُـدُوا لآدَمَ فَـسَـجَـدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾ [الأعراف] .

٣ - السـورة الرابعـة والأربعون (طه) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)﴾ [طه] .

٤ - السـورة التاسـعة والأربعون (الإسـراء) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَـلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء].

٥ - السـورة الثـالثة والخمسـون (الحجر) : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)﴾ [الحجر] .

٦ - السـورة الثامنة والسـتون (الكهف) :﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] .

٧ - السورة السابعة والثمانون (البقرة) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾[البقرة].

ويلاحظ على ما سبق من النصوص القرآنية ما يأتى :

١ - أن النصوص الستة الأولى مكية ، والنص السابع مدنى .

٢ - أن النص فى سورة (ص) يجعل السجود عقب تمام النفخ من روح الله ، وكأنه جزاء وجواب للشرط ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ ، وكذلك أيضاً السياق فى نص سورة (الحجر) ، أما النص فى سورة (الأعراف) فيوحى بوجود مسافة زمنية بين مرحلة التصوير (أو التسوية) وبين الأمر بالسجود ، كما سبقت ملاحظته ، ولكن استجابة الملائكة للأمر كانت فى سياقها فورية مقرونة بالفاء .

وتتشابه النصوص فى بقية الصور المكية فى (طه والإسراء والحجر والكهف) ـ إذ يأتى السجود جواباً للأمر : (أسجدوا) (فسجدوا) .

أما النص المدنى فى سورة البقرة فيجعل الأمر بالسجود عقب فصل هام من القصة ، هو الحوار بين رب العزة والملائكة فى شأن (الخلافة فى الأرض) ، وهى إضافة بارزة لم ترد فى أى نص قرآنى سابق أو لاحق .

لقد كان أهل التفسير يرون دائماً أن السجود الملائكى قد حدث عقب نفخة الله سبحانه ، التى أنهضت آدم (بشراً مُسَوَّى) ، وهو رأى سائد فى كل التفاسير ، إذ إن الملائكة رأت فى تحرك هذا المخلوق الطينى آية إلهية تستوجب السجود ـ تكريماً لآدم ، وطاعة لله عز وجل ، بحسب الرؤية القديمة ، وهو ما يقوله الأستاذ البهى الخولى (ص ٥٩) : سجدوا

ـ الملائكة ـ له بأمر من الله عز وجل عندما نفخ فيه سبحانه من روحه) .

أما نحن فنرى طبقاً لتصورنا أن نص سورة البقرة ، وهو النص الأخير الذى يحكم جميع النصوص السابقة ، ويهيمن عليها ـ هذا النص ، قد طرح ترتيباً آخر للأحداث ، فجاء بالأمر بالسجود بعد مشهد الحوار بين الله وملائكته عن اتخاذ خليفة فى الأرض ، ولم يكن آدم معلوماً آنذاك للملائكة ، رغم أنه كان موجوداً على الساحة بين أغمار البشر ، ولذلك عممت الملائكة الحكم على البشر ، وأنهم يفسدون ويسفكون الدماء ، ولو كانت الملائكة تعرف أن المقصود آدم ، فربما استثنته من هذا التعميم ، ولذلك قال الله : ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ .

وهنا دخل آدم إلى مسرح الحوار ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ .. (٣١)﴾ [البقرة] ، كان التعليم هو الوحى الذى علم آدم ما لم يكن يعلمه ، وهو اصطفاؤه نبياً ، وتزويده بالضرورة من التعاليم الدينية ، ليبدأ الموكب الجديد ، موكب الإنسان المكرم فى شخص آدم : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ .. (٧٠)﴾ [الإسراء] ، وموقف آدم عليه السلام فى هذا هو موقف محمد ﷺ ، وقد قال الله له ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ .. (١١٣)﴾ [النساء]

وفى هذا الموقف علمت الملائكة لأول مرة أن المقصود بالخليفة هو (آدم) ، وليس غير .. إنها النبوة ، طليعة الموكب الإنسانى ، وقاعدة انطلاق الخلق الذى بدأت خطواته التنفيذية منذ ملايين السنين ، فوجد كماله فى شخص آدم ، النبى المصطفى .. يالها من قدرة هائلة ؛ تابعت عملية الخلق خلال هذا الزمن المتطاول !! وياله من إنجاز رائع تجلى أعظم تجلٍ فى

شخص آدم الرسول ، الذى تفوق على ملائكة الرحمن !!

فى هذا المشهد الكونى العظيم أمر الله مـلائكته بالسجود لآدم ، تكريماً وتكليفاً : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ـ إنه موقف يثيـر من الأعمـاق كوامن الطاعـة والإعجـاب ، كمـا يحرك دوافع الحـقد ودفائنه ، وفى هذا المشهد ولد الشيطان !! الكافر المتأبى المستكبر !! ..

ولا بد أن نتعرض هنا لمعنى السجود والمراد به فى هذا الموقف ، وننقل عن الأستاذ البهى الخولى ما قاله فى كتابه (آدم عليه السلام ص ٥٩) : (ومن البديهى أن هذا السجود لم يكن سجود عبادة ونسك ، فإن ذلك لا يكون لغير الله ، إنما هو سجود تحـية وتكريم ومؤانسة ، وليس ضرورياً أن يكون سجوداً وضعوا له الجباه على الأرض ، كما نفعل فى سجودنا لله عز وجل ، فللسـجود هيئـات كثيرة تتـنوع بتنوع أصناف الخلائق ، والله سبـحانه يقـول فى ذلك : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝﴾ [الرحمن] ، ويقول على لسـان يوسف لأبيه : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝﴾ [يوسف] ، ويقول : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ [النحل] ، ومن البديهى أن سجود الدواب ليس كسـجود الملائكة ، وسجودهما ليس كسجود الكواكب والشـمس والقمر ، وسجود هؤلاء جميعـاً ليس كسجود الشجـر والزرع الصغيـر .. وهكذا .. ذلك إلى أن من معانى السـجود فى اللغة التطامن والتواضـع ، ويقول صاحب المصباح المنير : (وسجد البعير: خـفض رأسه عند ركـوبه ، وكل شىء ذل فـقد سـجـد) ، فإذا كـان فى سـجـود الملائكة مـعنى الذل فليس هو ذل العـبـودية ، ولا الذل المضـيع للكرامة ، إنما هو ذل التطامن والمودة الذى ترى شيئا منه فى قوله تعالى :

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] ، وتراه فيما يتبادله رحماء المؤمنين بينهم من انكسار الأخ لأخيه المؤمن الذى عبّر عنه الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] .

فهو سجود فيه معنى التحية والمودة وخفض الجناح ، والإقرار بالفضل ، قال القرطبى فى الجامع : (وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم ، الذى هو وضع الجبهة على الأرض ، ولكنه مبقى على أصل اللغة ، فهو من التذلل والانقياد .. أى : خضعوا لآدم ، وأقروا له بالفضل) (القرطبى ١/٢٩٣) .

والواقع أن الموقف لم يكن بحاجة إلى هذا العناد لتفسير السجود بالتذلل أو خفض الجناح ، أو الإقرار بالفضل ، فذلك كله مبنى على التصور القديم الذى يرى الموقف محصوراً فى اللحظات التى انبهرت فيها الملائكة بدبيب نفخة الله فى جسد آدم ، وهو تصور تَبيَّنَ قصورُه عن فهم الموضوع فى ضوء معطيات العلم ، واحتمالات النصوص القرآنية .

والذى نطمئن إليه هو أن سجود الملائكة كان يعنى تكليفهم بحياطة الحياة الإنسانية ، ابتداء من (آدم) ، وهو تكليف ماض إلى يوم القيامة ، تتولى الملائكة فيه المحافظة على بنى آدم ، وإلهامهم الخير ، طبقا لمشيئة الله سبحانه ، فى مقابل ما توعد به إبليس آدم وذريته من الغواية والاحتناك والهيمنة والتضليل .

فالملائكة هم بموجب أمر السجود ـ أحد طرفى المعادلة فى الحياة الإنسانية ، التى قامت على الصراع بين الخير والشر .

وعلى ذلك فقد سجد الملائكة ، وما زالوا ساجدين ، لآدم ، ولبنى آدم ، وهذه هى الكرامة التى كفلها الله لهذه الذرية المصطفاة من خليقته البشرية طبقاً لما قررته آية سورة الإسراء : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء] ، وهى أيضا الكرامة التى أشار إليها إبليس فى قصة الحوار فى سورة الإسراء : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ .. (٦٢)﴾ [الإسراء] ، فقد احتقن حين رأى ما خص به آدم من تكريم وكرامة ، فتوعد بأن يضله وذريته ، ليظهر عدم استحقاقهم لهذه الكرامة .

موقف إبليس من السجود

لإبليس فى قصة آدم موقفان : موقف مع رب العزة ، وموقف مع آدم وزوجه حواء ، والموقفان يتحولان فى النهاية إلى موقف واحد ، هو موقف الصراع بين الخير والشر ، أو التناقض بين الملائكة والشيطان ، ومجال الصراع دائماً هو نفس الإنسان (آدم وذريته) .

ويظهر إبليس فى مشهد التكليف بالسجود فجأة ، ودون مقدمات ، فلم يرد له ذكر قبل هذا المشهد ، وما كان سوى واحد من (الجن المنتشرين) فى أرجاء الأرض ، ولعله كان ذا حظوة واقتراب من عالم الملائكة حتى جاء الأمر بالسجود ، وكأنه مقصود به معهم ، والقرآن ينص على ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] .

ولعل تجاهل القرآن لذكره فى خبر الأمر بالسجود ـ إنما كان لأنه مجرد فرد من (الجن) ، على حين أن الخطاب كان لعالم الملائكة بإطلاق. فلما شذ فى موقفه ، وأعلن رفضه لأمر الله .. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ؛ صار علماً على الشر ، فى مقابل استجابة الملائكة الذين صاروا أعلاماً على الخير .

ونحسب أن الأمر لم يكن بالصورة التى يتخيلها العامة من المفسرين ،

من مـثول الملائكـة ومعـهم إبليس بين يدى الله ، جل وعـلا ، وآدم واقف ينتظر حدوث السـجود ، فقد اسـتقر رأينا على أن السجود كان لآدم النبى الذى اختير خليفة ، والذى استهل به عهد الإنسان ، لا لآدم المخلوق ، فإن حدث الخلق كـان قد مضت عـليه ملايين السنين ، وإن لـم يكن فرق بين السَّنَة والسِّنَة ، وعليه ، فـإن تكليف الله سبحـانه للملائكة بالسجـود كان يعنى تكليـفهم بـالاشتـغال بحـفظ ذلك الخليـفة النبى ، وذريتـه إلى يوم القيامـة وقد رفض إبليس أن يخضـع للأمر الإلهى ، وأن يعـمل فى خدمة الإنسـان كالملائكـة ، وبذلك انشق على الأمـر الإلهى ، وصـار عـدوا لآدم وذريته ، كما صار عدوا لله خالقـه ، وقد استعلن بهذه العداوة ، فلم يرجع عنها رغم زعمه أنه عبد الله !!

وعلى هذا تَكَوَّنَ التـشكيل الجديد للحيـاة كما أرادها الله : صـراعاً بين الخـيـر والشـر ، وتناقـضـاً بين الشـيـطان والملائكة فى شـأن الحـيـاة الإنسـانيـة ، وآدم وذريته مـوضـوع الصـراع ، وأدواته ، وهـم أبطاله أو ضـحاياه ، تمهيداً للمرحلة التاليـة من الملحمة الوجودية ، مرحلة الحساب ، والجنة والنار ، والخلود فيهما .

إن إبليس الذى رفض السـجود والتكليـف ـ كان عاصـياً لأمـر الله من ناحـية ، وكـان أداة لتنفيـذ إرادة الله من ناحـية أخـرى . ولولا أنه رفض السجود ، وركب رأسه ما كانت هذه الدنـيا ، وهو أمر لم يكن مقصوداً له حين عصى ربه ، ولم يكن يدريه قبل أن يكون .

ولنعـد الآن إلى النص الأول من الـتنزيل ، الذى ذكـر هذا المشـهـد فى سـورة (ص) : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ
أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ
عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ
(٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ [ص] .

ويبدو لنا هذا النص أشبه بتلخيص للحوار ، أو بالأحرى للقصة التى جاءت تفاصيل كثيرة منها فى السورة التالية نزولاً ، سورة (الأعراف) ، لكن حسبنا الآن هذا الموجز الذى يقتصر على جانب الحوار بين الله وبين المتمرد إبليس .

وفى بداية النظر فى مكونات الحوار نؤكد هنا على ضرورة مراعاة المسافة بين ما ينبغى لله من جلال وعظمة وعلو شأن ، وهو سبحانه الخالق البارئ المصور ، وبين إبليس من حيث هو مخلوق يواجه خالقه ، وهو لا يزيد فى قدره عن أى مخلوق متمرد على أوامر الخالق ، مُصِرٍّ على معصيته ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى يجب أن نستبعد الصورة الساذجة التى يتخيلها بعض من تناولوا هذه القصة .. أعنى : صورة المواجهة المباشرة فى هذا الحوار ، فلا ريب أن الشيطان كان فى موقعه من الكون ، لا يستطيع أن يتجاوز قدره ، فيتطاول إلى المقام الأسنى ، مقام رب العزة ، ليجابهه بتلك

المقـولات ، فـالله أعلى وأجل مـن أن تدركـه الأبصـار ، أو تحـده الأوهام والظنون . وغاية مـا نتصوره أن يكون الحوار قد جـرى من خلال الوحى النفسى ، الذى أحاط بتفاصـيله من يعلم السر وأخفى ، فهو ـ والله أعلم ـ حوار جـرى فى نفس إبليس ، حين رفـض الأمر بالسجـود ، من منطلق اعتقاده بأنه خيـر من آدم من حيث الأصل ، فهو من نار ، وآدم من طين ، وذلك رداً على ما ثار فى نفسه من أن إباءه السجود لا تفسير له إلا الكبر والغطرسـة ، وحـينئـذ جـاءه الأمـر الإلهى ـ أيـضـاً ـ من طريق الوحى النفسى : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .. وهكذا سار الحـوار إلى نهايته ، بكل ما تضـمن من حقائق وأقـدار عبرت عنها كل رسالات الأنـبياء ، من لدن آدم إلى محمـد ، عليهم جميـعا أفضل الصلاة وأتم السلام .

وقد يحلو لبعض المتفلسفة أن يروا فى هذا الموقف الإبليسى تعبيراً عن القوة والشـجاعة الأدبيـة .. بل وزاد بعضـهم فى المغـالطة ، فرأى فى هذا الموقف آية على منتهى الـتوحيد ، فـهو لا يسجد إلا لله وحـده !! .. وتخيل بعضـهم أن إبـليس حين تمرد على الله صار رمز الحـرية ، وزعيم الأحرار الرافضين للقيود !! ..

والواقع أن مـوقف إبليس فى ذلك الحـوار يعكس مـلامح شـخـصيـة متناقضة غبية ، غاية فى الغباء والتناقض ، والضعف ، والجبن ، والجهالة، وذلك إذا ما احتكمنا إلى المقاييس الأخلاقية المثالية ، وإنما أضفى عليه حلم الله الواسع هالة من التعاظم تليق بمتكبر حقود ، هو إبليس .

فليس من القوة أن يتصدى المخلوق للخالق ، ويتمرد عليه ، وهو يعرف يقيناً أنه هو الخـاسـر فى النهاية .. بل وهو يعلم أنه يخـاطب ربه ذا القوة المطلقة ، والبأس الشديد .

وليس من الشجاعة أن يتجرأ على الله ، وهو يعلم أن ذلك يؤدى به إلى جهنم ، وبئس المصير ، ثم يستمر فى هذا التجرؤ إلى حد الوقاحة والتحدى العبيط !!

وليس التوحيد إلا الإذعان بالعبودية والطاعة المطلقة لله وحده لا شريك له ، والانصياع لأوامره ، وإبليس حين رفض السجود لآدم لم يكن إلا رافضاً لأمر الله ، وقد أوقعه فى هذا الجرم سوء تأوله ، أو لنقل : إنه قد ركِبَهُ فى هذه اللحظة شيطان آخر أعتى منه ـ لو صح التصور ـ فأغراه بالتمرد ، وأعماه عن تبين وجه الحق الذى أدركته الملائكة ، فالملائكة هم فى الواقع أذكى منه ، وأعمق توحيداً ، على حين خرج هو عن دائرة التوحيد !!

ويكفى دليلاً على غباء إبليس أنه وقد خفى عليه المعنى الصحيح للسجود ، وهو موالاة آدم وذريته ـ إلى يوم القيامة ، كما أدركت ذلك الملائكة ـ انبرى بعقله الغبى يعقد مقارنة بين النار والطين ، ويزعم خيريته على آدم من هذا الجانب ، مع أن الطين عند التأمل خير من النار ، فهو زكى معطاء ، وهى أداة إهلاك وعذاب .

وفضلاً عن ذلك ؛ فإن الأمر بالسجود لآدم لم يكن يعنى أفضليته ، بقدر ما كان يعنى إرادة تنظيم الحياة الجديدة على أساس من تعاون المستويات الخلقية الثلاثة : النور والطين والنار ، أو الملائكة ، والبشر والجن ، وخضوع الجميع لأمر الله وإرادته .

وهب ـ يا إبليس ـ أن السجود كان يعنى الأفضلية ، فإن هذه الأفضلية لم تكن تعنى الأصل المادى ، بل هى تعنى تعلق الإرادة الإلهية بالأمر

وتنفيذه من ناحية ، ثم إن معيار الأفضلية فى مستواها العلوى ليس مادة الخلق ، من طين أو من نار ، بل هو التنافس فى طاعة الله ، كما قال تعالى فى محكم التنزيل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] ، فقد يُحلِّقُ فى سماوات الرضوان جِنّيٌّ من نار ، وقد يرسب فى قاع الجحيم إنْسِيٌّ من طين ، لأن المعيار هو التقوى .

لقد سجل إبليس على نفسه نقطة غباء ، حين حصر نفسه فى ملاحظة الفرق بين الطين والنار ، ولو كان ذلك صحيحاً لفخرت الملائكة عليه بأنها من (النور) ، وهو خير من النار قطعاً ، بمقياس إبليس .. بل وبكل مقياس !! وإذا كان أتباع الشيطان وعَبَدَتُه قد تصوروا أن إلههم هو رمز الحرية ، وزعيم الأحرار فما ذلك إلا أثر من آثار تسلطه بغبائه على عقولهم ، إن كانت لهم عقول ، لقد تعلقوا بمفهوم التمرد الذى أبداه إبليس فى مواجهة أمر خالقه ، ولم ينظروا إلى أنه لم ينكر ربوبية الله ، فى مطلبه أن ينظره إلى يوم البعث ، وفى قَسَمه بعزة ربه ، وهو مسلك يصمه بالتناقض أو بالجنون ، إذ كيف يُقبَلُ منه أن يتمرد على (رب العزة) باعترافه ، ويختار طريق الغواية والإغواء والذلة ، عامداً متعمداً .. اللهم إلا أن يكون غبياً غاية فى الغباء ، أو منقاداً لشيطان أعتى منه ، تسلط عليه حتى أضله هذا الضلال المبين ؟!! وحتى فقد القدرة على التمييز فلم يلحظ تناقضه الفاضح !! فإذا لم يكن هناك شيطان قبله ، فهو إذاً انطماس البصيرة ، وعمى البصر ، وهو أولاً وأخيراً الحقد الذى ملكه تجاه آدم وذريته .

أين هى الحرية إذاً ؟ اللهم إلا أن يكون معنى الحرية هو الانتصار للرذيلة ، والتحلل من كل قيمة تعمر بها الحياة .. أن يكون معنى الحرية

هو تخريب الدنيا ، وتدمير بنائها الإلهى ، ونشر الفساد والإلحاد ، وإشاعة الفوضى والانفلات ، وسيادة الحقد على وجوه الحياة كلها ؟!!

ومع ذلك ، إن إبليس كان فى موقفه مغروراً ، لأنه زعم لنفسه القدرة على إغواء الناس أجمعين ، إلا المخلصين منهم من عباد الله ، وعجيب أن يدرك هذا الفرق بين الغواية والإخلاص ثم يستمر فى مزاعمه ، فكان نذير الله له بأن يملأ جهنم منه ومن أتباعه أجمعين ، وبهذا ختم الحوار ـ كما قدمته سورة (ص) ـ فى أول سياق يتعرض لهذه القصة .

فإذا قرأنا ما جاء فى السورة التالية لها ، فى سور الأعراف ـ الثامنة والثلاثين ـ وجدنا مزيداً من التفاصيل عن أساليب إبليس فى إفساد الحياة الآدمية (الإنسانية) ، وهو مضمون قوله : (لأغوينهم) : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف] .

وفى السورة التاسعة والأربعين ـ الإسراء ـ يخاطب إبليس ربه : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ [الإسراء] .

ويجيبه الله سبحانه : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء] .

وفى السورة الثالثة والخمسين ـ الحجر ـ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ

لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾[الحجر].

وفى السورة الثالثة والتسعين - النساء - يأتى حديث عن الشيطان ، والمقصود به إبليس - قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) ﴾ [النساء] .

وهكذا - عبر النصوص المتتابعة - يتضح المقصود بالغواية فى قوله تعالى : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ ، فهو يقعد لبنى آدم على الصراط المستقيم ، بأن يعترضهم على طريق الإسلام ، وهو يتسلل إلى حياتهم من كل اتجاه بوسوسته بقدر ما يستطيع ، وقد ورد فى الحديث : (**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ؛ قعد له بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك فتتغرب ، فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك ، وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل**) (الكشاف ٢/ ٧٠ - ٧١) ، وإبليس يتوعد هنا بأن يحاصر بنى آدم من جميع الجهات ، كناية عن محاولته الهيمنة عليهم ليذهلهم عما خصهم الله به من الكرامة ، وهو ما جاء فى النص التالى فى سورة الإسراء ، التاسعة والأربعين نزولاً ، فى الآية الكريمة : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ [الإسراء] ، والاحتناك ، مأخوذ من الحنك - فكأنه يتوعد بأن يلتهم بوسوسته بنى آدم ، إلا قليلاً منهم ، ممن

يعصم الله من غواية الشيطان ، وهذه صورة أخرى من تفسير معنى الإغواء .

ويرد الله سبحانه وتعالى عليه هذا الوعيد : ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء] . وفى هذا الرد توصيف لوسائل الإغواء ، ومدى ما يمكن أن يكون لإبليس من أساليب تخريب الحياة الإيمانية ؛ أن يستفز الناس ويستخفهم بصوته ، وأن يجلب عليهم ويصيح بهم بكل ما يملك من خيل ورَجْل ، وهو كناية عن الضجيج والصخب ، والتسلط ، وقد يدخل فى مضمون الصوت والجلبة كل كلام من العبث والمجون ، والفحش والبذاء ، ونداءات الجنس ، وأفلام الانحلال ، وكل هذه أساليب شيطانية تحقق أهداف إبليس .

وحسبنا فى هذا قول رسول الله ﷺ : (**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**) ، فهو جار إلى المخ مباشرة ، ويبقى فى الآيتين السابقتين قوله تعالى : ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ ، وقد فسره الزمخشرى بقوله : وأما المشاركة فى الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها كالربا ، والمكاسب المحرمة ، والبحيرة والسائبة ، والإنفاق فى الفسوق والإسراف ، ومنع الزكاة ، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام ، ودعوى ولد بغير سبب ، والتسمية بعبد العزى ، وعبد الحارث ، والتهويد والتنصير ، والحمل على الحرَف الذميمة ، والأعمال

المحظورة ، (وعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة ، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وتسويف التوبة ، ومغفرة الذنوب بدونها ، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول فى الكبائر ، والخروج من النار بعد أن يصيروا حمماً ، وإيثار العاجل على الآجل (الكشاف ٢/٤٥٧) .

وهذه هى أساليب الغواية الشيطانية التى نزلت فيها الآيتان من سورة الحجر ، وهى الثالثة والخمسون نزولاً : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر] ، فعبارة (لأزينن لهم فى الأرض) تلخيص لما ورد من أساليب الغواية فى سورة (ص والأعراف والإسراء) ، وقد جاءت الآيات من سورة النساء المدنية ، وهى الثالثة والتسعون نزولاً - وهى أيضاً آخر ما نزل فى وصف ألاعيب الشيطان ، جاءت تلك الآيات بمثابة الاستقصاء النهائى لتلك الألاعيب .. قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء] .

والنص هنا يذكر من أساليب الشيطان (الإضلال) وهو لفظ عام يشمل كل ما مضى ، ويضيف النص أسلوب (التَّمْنية) بالأمانىِّ الباطلة من طول الأعمار ، وبلوغ الآمال ، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة ، إلى غير ذلك من الأمانىِّ الكواذب ، ثم يذكر ما كانت تعرفه الجاهلية من تبتيك آذان الأنعام ، أى : شق أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن ، وجاء الخامس

ذكراً ، وتحريم الانتفاع بها ، ثم يلى ذلك ما كانت تعرفه الجاهلية أيضاً من (تغيير خلق الله) ، وكان ذلك يتمثل فى فقء عين الفحل الحامى ليعفى من الركوب ، كما يتمثل فى خصاء بنى آدم ، وقيل : إن المقصود تشويه الإسلام ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها . وقيل : الوشم ، وقيل : التخنث (الكشاف ١/ ٥٦٤ - ٥٦٥) .

ونسجل هنا بضع ملاحظات :

الأولى : أن إبليس فيما توعد به لم يكن يرسم خريطة الحياة الآدمية المستقبلة ، فما كان بالذى يعلم الغيب ، ولكنه كان فى موقفه يطفح حقداً ، وينطق كذباً وغروراً .. هو صورة مما يتمنى أن يكون ، ولسوف نجد أن ما ذكره من عوائد الجاهلية لم يكتب له البقاء ، ولم يعد له أثر .. بل تلاشى من الحياة الإنسانية تماماً ، ولعله استبدل به أساليب أخرى تتناسب مع فنون العصر وجنونه .

والثانية : أن تلقينا لمقولات إبليس لا ينبغى أن يخدعنا عن حقيقته ، وهى أنه غبى ومغرور ، بل هو (الغَرور) .. لم يتصف كائن بذلك سواه : ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ ﴾ [فاطر] ، أى : الغوى الأكبر ، وكل مواقفه وأساليبه تدل على ذلك ، ولسوف نزيد هذه الملاحظات عمقاً فى حديثنا عن شخصية الشيطان كما تصورها آيات القرآن .

والثالثة : أن ما ذكرنا من أساليب الإغواء الشيطانى ليس إلا الشكل النظرى ، والتوعد المغيظ - إن صح التعبير - فأما التطبيق العملى فهو فى كل عصر بحسبه ، ومع كل إنسان بحسبه أيضاً ، والهدف الرئيسى أن يزيد من حصيلة جهنم من بنى آدم ، حتى لا يصلاها وحده ، أو مع

أتباعه من شياطين الإنس والجن وحدهم .

ويبقى من هذا الحوار ما جاء من قوله تعالى فى سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص] ، وقد جاء فى مقابلها فى سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، كما تكرر هذا الأمر بعدما أظهر إبليس من وقاحة فى مخاطبة المولى عز وجل : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف] .

وما جاء فى سورة الحجر لا يختلف عما فى سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص] .. وقد استخدم النص الكريم أحد لفظين : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أو ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ، وكلاهما يثير سؤالاً عن المقصود بالضمير فى (منها) ، علام يعود هذا الضمير ، ولم يتقدم ذكر لما يعود إليه ؟.. وذلك مع ملاحظة أن الأمر موجه إلى إبليس وحده ، على خلاف الأمر الآخر الذى جاء فى الحوار مع آدم وزوجه بعد الوقوع فى الخطيئة : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف] ، أو : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه] ، أو : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة].

إن المتأمل فى الأمر الموجه إلى آدم وزوجه لا يعسر عليه أن يلاحظ عود الضمير إلى (الجنة) المذكورة فى السياق المتقدم من القصة ، أما الأمر الموجه إلى إبليس وحده فهو الذى يثير التساؤل ، وقد ذهب الزمخشرى إلى أن المراد هو الهبوط أو الخروج من السماء التى هى مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التى هى مقر العاصين المتكبرين من الثقلين .. ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ وتعصى ﴿ فَاخْرُجْ

﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ، أى : من أهل الصغار والهوان على الله ، وعلى أوليائه لتكبرك .. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار (أُلبِسَ الصغار) (الكشاف ٦٩/٢) .

ويرى صاحب المنار : (أن الهبوط هو الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من مكانة ومنزلة إلى ما دونها ، ثم قال : والضمير عائد إلى الجنة التى خلق الله فيها آدم ، وكانت على نشز مرتفع من الأرض (المنار ٢٩٦/٨) ، ولعل بيان الزمخشرى أقرب إلى العقل ، لعدم تقدم ما يعود عليه الضمير ، سوى ما يفهم من المقام ، والأمر ليس إهباطاً مادياً .. بل هو نوع من الزجر ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **اذهب فمن تبعك منهم..** ﴾ ، ولأن الجنة التى وردت فى الحوار مع آدم قد أسكنه الله إياها بعد صدور هذا الأمر إلى إبليس ، وقريب من ذلك ما ذكره صاحب المنار عن الحافظ ابن كثير قال : (يقول تعالى لإبليس بأمر قدر كونى : فاهبط منها بسبب عصيانك لأمرى ، وخروجك عن طاعتى ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ؛ قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التى هو فيها من الملكوت الأعلى ﴿ **فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ .. أى : الذليلين الحقيرين .. معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة إلى يوم الدين) . (المنار ٢٩٧/٨) ، وعلى نسق هذا الأسلوب تجرى تعبيرات مماثلة على ألسنة العوام ، لا تراد حرفيتها .. بل المراد مضمونها الموقفى ، كقول العامة : (اطْلَع مِنْها وهى تِعْمَر) ، فالمقصود هنا مجرد الانصراف عن الموضوع ، وعدم التدخل فيه .

ولقد يعين على تبين المراد بالأمر الموجه إلى إبليس (اهبط منها) ـ أنه

اقترن فى آيـة الأعراف بما يفـسر هذا المراد ، وهو قوله تعالى : ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ، و (الهبـوط) حركـة رأسيـة من أعلى إلى أدنى ، و(الخروج) حـركة أفقيـة من مكان إلى آخر ، والجمع بين البـعدين على المستـوى المادى متناقض ، فلم يبق إلا المسـتوى الأخلاقى ، وهو الهـبوط من قمة الطاعـة إلى درك التمرد ، والخروج من حرم الرضـوان إلى حمأة الفسوق والعصيان ، وذلك يمكن تفسير الهبوط بالخروج .

فـأما أن يقـال : إن الأرض أقل من السـماء فـقول لا مـوضـع له ، لأن الكون كله خلق الله وصنعـتـه ، وهو مجـال لأمره سـبحـانه ، ولله الخلق والأمـر ، والأماكـن تشرف بأنهـا صـنعـة الخـالق ، لا بمن تعلق بهـا من المخلوقات طائعاً أو عاصياً ، فاستوى بذلك الظرف والمظروف ، وقد يخص الله بعض خلقه ببـعض الأماكن ، كما يخص بعض الأماكن بـبعض خلقه ، وكل ذلك فى إطار الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

إن الله سـبحـانه لا يكره خلقـه لذواتهم ، بل يكره منهم أفـعـالهم التى نهاهم عنها ، ويدعـوهـم إلى مزايلتها ، مزايلة لإبليس الذى افـتضـح أمره ، وتعرى من ملابسه ، وأغرقـهم فى وسـاوسه ، كما أن الله يدعوهـم إلى فعل المأمورات حـتى يحبـهم ، ويزيد فى الإحسان إليـهم ، فمن أطاع الله فـقد ارتقى فى درجـات الملأ الأعلى صـعداً ، ومن عـصـا الله فقـد ارتكس فى دركات العذاب حُدُراً ، وبئس المصير ، وهذا هو الأصل ، أو هى السنة التى عامل الله بها خلقه المكلفين بطاعته ، منذ كان التكليف .

بين إبليس و آدم فى الجنة

يبدأ الفصل الثانى من الحوار فى قصة الخلق ، بعد افتضاح أمر إبليس، وإعلانه السافر عن عداوته لآدم وذريته - يبدأ هذا الفصل بتوجيه الله لآدم أن يسكن هو وزوجه (حواء) الجنة ، وأول آية تحدثت عن هذا التوجيه هى آية الأعراف : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف] .

ولا مناص من التسليم بأن آدم هو ابن الأرض ، وقد كانت حياته قبل الاصطفاء وبعد الاصطفاء على الأرض ، وقد اختار الله للزوجين بقعة رائعة من البقاع المثمرة ، توفر فيها الغذاء ، والكساء ، والماء والظل ، وسائر مقومات الحياة الرخية ، وقال له : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه] ، وكان لهذه الجنة (أو الحديقة) وظيفتان :

الأولى : أن يمارس فيها آدم أساسيات الرسالة التى اصطفاه الله لتبليغها إلى ذريته ، ولا سيما التكاليف الأخلاقية ، والتعاليم الدينية المتصلة بالدنيا والآخرة ، وهو ما يبدو متألقاً فى قصة ابنى آدم (هابيل وقابيل) فى سورة المائدة ، ولا ريب أن الولدين قد تلقيا عن أبيهما كل ما دار فى حوارهما من تعاليم كالتقوى والفجور ، والتوحيد والشرك ، والحلال والحرام والعدل والظلم ، والجنة والنار ، وفى هذه الجنة

الأرضية كانت الخطيئة التي سوف نتعرض لمناقشتها بعد قليل .

الثانية : أن هذه الجنة كانت بمثابة الملجأ الآمن الذي يعزل آدم وزوجه بعد الاصطفاء ـ عن سائر البشر ، خارج نطاق التكليف الديني . ريثما تخلى الساحة الأرضية من وجودهم .. إذ إن الأرض لن تكون بعد ذلك إلا لآدم وذريته ، وهي بداية العهد الإنساني .

لقد خلق آدم من تراب الأرض ، ليعمر هذه الأرض ، وذلك قدر الله منذ شاء خلق البشر ، وهم أصول آدم .

وما أشبه ما حدث آنذاك ، حين عزل آدم وزوجه في الجنة ، بما حدث بعد ذلك إبان الطوفان ، فقد حمل نوح في فلكه من كلٍّ زوجين اثنين ، وأهله معه ثم تولى الطوفان تطهير الأرض من المشركين وآثارهم ، وقاد نوح الفُلْكَ حتى ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [هود] ، لقد كان بدء العهد الإنساني يتطلب إخلاء الأرض من المفسدين وسفاكي الدماء، وهو ما تولت القدرة الإلهية تنفيذه فترة سكنى آدم وزوجه في الجنة .

على أننا ينبغي ألا تفوتنا ملاحظة ظهور زوج لآدم ، لم يرد ذكرها قبل ذلك ، وهو ما يعني أن آدم كان متزوجاً قبل الاستخلاف والاصطفاء ، وذلك ما يدل عليه سياق القصة . يقول الشيخ رشيد رضا : (والآية تدل على أن آدم كان له زوج .. أي : امرأة ، وليس في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى ألقى على آدم سباتاً ، انتزع في أثنائه ضلعاً من أضلاعه فخلق له منه جواء امرأته ، وأنها سميت امرأة (**لأنها من امرئ أخذت**) ، وما روى في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات ، وحديث أبي هريرة في الصحيحين : (**فإن المرأة خلقت من ضلع ..**) ، على حد

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] ، بدليل قوله : **(فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء)** أى: (لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة) (المنار ٨/٣٠٨) .

وعلى أية حال فإن اختيار القرآن إبراز وجود الزوج كان على أعتاب الجنة ، ودخل الزوجان الجنة أو السكن الذى اختاره الله لهما ليبدآ حياة لا يدريان من ملامحها إلا ما أذن الله لهما بمعرفته ، فليست هذه الجنة نهاية المطاف ، ولكنها مرحلة سوف تشهد أحداثاً وفصولاً فى قصة الحياة على هذه الأرض .

على أن من الضرورى أن نشير هنا إلى أن دلالة لفظ : (الجنة) على (البستان الأرضى) هى الدلالة الحقيقية والأصلية ، وفى مقابلها دلالة اللفظ على (دار النعيم الأخروى) ، وهى دلالة مجازية ، جاء بها القرآن ، كما جاء بالدلالة الحقيقية ، ومن ذلك ما جاء فى سورة (القلم) ، وهى السورة الثانية نزولاً ـ من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨)** ﴾ [القلم] ، وهو أول استعمال للفظ (الجنة) فى القرآن ، فجاء به على دلالته الأصلية (البستان) ، ثم ثنّى بذكر جنة الآخرة فى نفس السورة ، فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)** ﴾ [القلم] ، وكأن القرآن قصد إلى إثارة المقابلة بين (جنة) الدنيا ، وهى عرضة للنوازل ، و (جنات النعيم) فى الآخرة .. ينالها المتقون ، وذلك فى فترة مبكرة جداً من نزول الوحى القرآنى ، فسورة القلم هى ثانى سور القرآن نزولاً .

ونعود إلى الجنة وساكنَيْهَا اللذين زودهما ربهما بكل ما يلزمهما من تنبيهات وتحذيرات من حقد إبليس عليهما ، ولكن هيهات لآدم وزوجه ،

وهما حديثا عهد بالتكليف ، قليلا الخبرة بألاعيب العدو وأخلاقه الوضيعة .. هيهات لهما أن يقاوما ما واجها معه من إغراء ؛ أثار شهيتهما ، وحرك غرائزهما .

لقد كان توجيه الله لهما : ﴿كُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وما أعظم ما أباح لهما من نعَم ، وما منحهما من الحرية ، بالقياس إلى ما منعهما منه ، وجاء الشيطان يوسوس لهما ، صارفاً لهما عن نعم الله الوفيرة والمباحة ، مركّزاً على تلك الشجرة المحظورة ، وهى معيار الطاعة والمعصية .. جاء الشيطان قائلاً لهما ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف] ، كانت القضية واضحة ، تتعلق بتوجيه الله سبحانه لهما ألا يأكلا من الشجرة ، وكان هدف الشيطان أن يأكلا من الشجرة وأن يفعلا ذلك بأى ثمن من الكذب والخداع ، فهو إذاً التصادم بين أمر الله وهدف الشيطان ، وقد بدأ يمارس مهمة الإغواء ، وينفذ وعيده الذى أعلنه ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر] ، ولا ريب أن تلك الشجرة كانت مغرية ، تدعو إلى تجربة مذاقها ، وجاء إبليس بكلام كله كذب ، فربط بين الشجرة والارتقاء إلى درجة الملائكية ، أو تحقيق الخلود ، وكلا الأمرين مطمح لآدم وزوجه، لقد علما أن لله ملائكة مقربين ، مخلوقين من النور ، لهم عند الله الدرجات العلى ، كما علما أن كل نعيم لا محالة زائل بالموت ، كما فنيت أجيال قبلهما ، ولا مهرب من الموت إلا بتحقيق الخلود ، وما أعزه مطلباً ، وما أهونه وسيلة ، أن يأكلا من الشجرة .. مجرد مذاق .. ولن يكلفهما ذلك إلا أن يمدا أيديهما إلى ثمرها ، وزادهما تعلقاً بالدخول فى هذه التجربة أن اللعين أخذ يقسم لهما بالله إنه يريد صالحهما ، وإنه

ناصح لهما ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) ﴾ [الأعراف]، وهو كاذب فى كلامه ، كاذب فى قسمه ، ولكنهما لم يتصورا أن يوجد من يجرؤ على الكذب بهذه الصورة الفاجرة ، حتى ولو كان إبليس ، وغاب عنهما تماماً فى هذه اللحظة تحذير الله لهما ، ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه] وعلا صوت الشيطان فى أذنيهما يدعوهما أن يأكلا من الشجرة ، ﴿فَأَكَلا مِنْهَا﴾ فى لحظة ذهول وضعف، وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير .. كانت الخطيئة التى جعلتهما من الظالمين .. يا لهول الموقف !!

أية شجرة هذه التى كان الاقتراب منها سبباً فى تتابع تلك النتائج الهائلة فى حياة الإنسان ؟!

لسنا نميل إلى التعويل على معرفة نوعها ، أو أثرها ، فكل ذلك لا يهم ، إذا ما قيس بموقف معصية الإله العظيم ، رغم التحذير والتذكير ، يقول الأستاذ سيد قطب : (ويسكت القرآن عن تحديد هذه الشجرة ، لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئا فى حكمة حظرها ، مما يرجح أن الحظر فى ذاته هو المقصود ، لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور ، ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ، وأن يدرب المركوز فى طبعه من الإرادة التى يضبط بها رغباته وشهواته ، ويستعلى بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكماً لها .. لا محكوماً بها كالحيوان ، فهذه هى خاصية (الإنسان) التى يفترق بها عن الحيوان، ويتحقق بها فيه معنى (الإنسان) (الظلال ٨/ ١٢٩) .

وهكذا ـ رغم التحذير الإلهى ـ سقط الزوجان فى شرك الغواية : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] ، وعبارة القرآن (فدلاهما بغرور) تعنى أنه أوقعهما فى الغرور والانخداع حين استدرجهما إلى الحضيض ، والتدلية : الإسقاط إلى الأسفل وتلك هى النتيجة الأخلاقية التى قصد إليها الشيطان ؛ أن يكشف عن ضعف آدم وزوجه ، لأنهما - فى رأيه - لا يستحقان التكريم الذى خصهما الله به ، وبذلك لم يعد الشيطان وحده هو المتورط فى المعصية .. بل (استوى الماء والخشبة) ، فهما فى الخطيئة سواء ، غير أن وصف القرآن للآثار المادية للأكل من الشجرة يستأهل الوقوف عنده والتأمل فى واقعة المعقول .

لقد تناقل المفسرون رأيا واحداً عن السوأة ، وهى : العورة ، وقالوا - دون اختلاف - إن نتيجة الأكل من الشجرة كانت ظهور عورة كل منهما لنفسه ولصاحبه ، وكانا من قبل لا يريان ذلك لمواراة سوآتهما عنهما ، والغريب أن يقول صاحب المنار : (والأقرب عندى أن معنى ظهورهما لهما أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفى عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها ، وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يخصفان ، أى ، يلزقان ، أو يضعان ويربطان على أبدانهما من ورق الجنة) (المنار ٨/٣١١) .

وكل ما يقال فى هذه المسألة هو محض اجتهاد يسمح به أسلوب الآية ووصفها لما حدث . وعلى ذلك يجوز أن نجتهد فى فهمها انطلاقاً من الملاحظات الآتية :

١ - أن القرآن ذكر (السوأة) بالجمع مضافاً إلى مثنى ، وهو ما يعنى أن ما بدا منهما ليس عورتيهما .. بل هى عورات كثيرة ، ولو كانت العورة الغليظة هى المقصودة لقال النص الكريم (بدت لهما سوأتاهما) ، لكن الجمع يوحى لنا بمعنى آخر .

٢ - افتراض أنهما فوجئا برؤية ما لم يكونا يريانه مخالفا لمعنى الزوجية ، وسنة الله فيها ، وآراء المفسرين قائمة على افتراض أنهما أول زوجين فى تاريخ البشرية ، وهو أمر أثبتنا خلافه ، فقد كان الاتصال الجنسى بين الذكور والإناث - منذ ملايين السنين - بلا قيد أو شرط خلال العهد البشرى ، حيث لم يكن دين ولا تكليف .

٣ - أن آدم لم يكن يعيش فى الجنة عارياً بدائياً ، وهو ما قرره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ [الأعراف] .

٤ - قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ (٢٢) ﴾ [الأعراف] يؤكد أن الضمير فى (عليهما) لا يعود على (السوءات) ، وإلا لقال : (عليها) ، بل إن عائد الضمير هو (آدم وحواء) بشخصيهما ، والصورة كما تبدو لنا فى موقف الزوجين صورة هائلة :

فقد شعرا حين ذاقا الشجرة أنهما خالفا أمر ربهما ، وقد حذرهما من الشيطان تحذيراً صارماً ، ومعنى ذلك غضب الله عليهما ، وهو ما هيج مشاعرهما ، ووضعهما فى مواجهة عاقبة لا يحتملانها .

وركبهما الندم من هذا التعرى أمام الله ، فأخذا يحاولان التخبؤ والاستتار حياءً منه وخجلاً ، وذلك بأن يتخذا من ورق الجنة غطاء يسترهما ، وكأنهما يهيلان عليهما هذا الورق .

وبيْنَا هما فى هذه الحال الرعيبة ﴿ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، وكان هذا النداء بمثابة حبل الإنقاذ لهما فتعلقا به وقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف] .

وهذه الكلمات هى التى أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة] .

وقد عبر القرآن عن الموقف كله بقوله : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه] .

وأرجع سبب الوقوع فى الغواية إلى أنه لم يكن عامداً .. بل ناسياً : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] .

ويمكن تفسير نسيان آدم بأنه داخل فى مضمون الجهالة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧) ﴾ [النساء] .

وهو موقف يختلف عن موقف إبليس الذى علم السوء ، وفعله ، وأصر عليه ، ولذا استحق آدم وزوجه أن يتوب الله عليهما .

وعند هذا المقطع من تسلسل الأحداث اكتملت معادلة الحياة الدنيا بكل عناصرها : (الأمر ـ الوسوسة ـ المخالفة ـ الندم ـ المغفرة) ، فآن الأوان لنزول آدم إلى معترك الحياة الدنيا ، وقد ترسخت فى عقله ونفسه تلك المعادلة ، بعد أن هيئت له الساحة ، وأخليت الأرض من المفسدين وسفاكى الدماء ، ولم يعد فيها سوى الإنسان الجديد ، (آدم : أبى الإنسان ، وحواء: أمه) فى مواجهة إبليس عدوهما اللدود ، وقامت الحياة على هذا العداء المتبادل : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ [الأعراف] .

ولسنا بحاجة إلى تكرار أن الأمر بالهبوط مرادف للأمر بالخروج .

اللغة والأسماء القديمة
الله
الملائكة - آدم - إبليس - الشيطان

الله

كان القرآن ـ ولا يزال ـ الوثيقة اللغوية التى نعتمد عليها فى معرفة الأسماء التى وردت فى قصة الخلق ، وما يتصل بها ، وأقدم الأسماء على الإطلاق هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والمفروض أنه قبل ظهور (الإنسان) ـ لم يكن البشر يعرفون شيئاً سوى ما تهيئه لهم طبيعة مرحلة النمو التى يعيشونها ، فقبل أن يكون العقل ، وقبل أن تتكون اللغة لم يكونوا يدركون شيئاً عن حقيقة الحياة ، وطبيعة الوجود ، إلى أن كان اصطفاء (آدم) فعرفت الخليقة خالقها ، بدءا من معرفة آدم لربه ، وفى نفس الموقف برزت أسماء بعض المخلوقات : الملائكة ـ البشر ـ آدم ـ إبليس ، ولا ريب لدينا فى أنها أسماء قديمة ، استخدمت قبل أن تظهر العربية إلى الوجود ، وقد وردت هذه الأسماء فى كلام الله ضمن حديث القرآن عن قصة الخلق ، أولى قصص الوجود البشرى والإنسانى معاً .

ونحن لا نتصور أن هذه الأسماء كلمات مأخوذة من العربية للتعبير

عن شخصيات القصة ، فقد كانت القصة قبل أن تكون اللغات بالشكل المعروف ، نوعاً وعدداً ، وقد عرفت تلك الشخصيات بهذه الأسماء التى جاءت فى كلام الله ، وهذا هو السر فى شيوعها فى كثير من اللغات الإنسانية بصور نطقية متقاربة ، فلفظ الجلالة : (الله) معروف هكذا فى اللغات السامية القديمة ، ومنها العربية ، كما تعرفه اللغات الأوربية .

ولقد حاول الاشتقاقيون أن يردوا لفظ الجلالة (الله) إلى جذر اشتقاقى ، فقال كثير منهم بأنه مشتق من (أَلِهَ) بمعنى : فَزِعَ ، أو بمعنى: تحير ، أو بمعنى : عبد ، أو بمعنى : أقام ، وقال بعضهم : إنه من (وَلِه) بمعنى : أَحَبَّ ، وقال غيرهم : إنه من (لاه) بمعنى احتجب أو ارتفع .

وأغلق بعضهم باب الاشتقاق وقال بأنه غير مشتق .

وفريق ثالث قال : بأنه غير عربى ، فهو سريانى - أو عبرانى .

والأكثرون على أنه عربى .

والذى نراه أن ذلك كله خبط فى ظلماء مدلهمة لأن الله سبحانه أخبر عباده بأنه (الله) ، وطلب منهم أن يعبدوه ويوحدوه لأنه (الله) ، والخطاب هنا ليس عربياً لقوم عرب .. بل هو خطاب إلهى كونى صدر عن خالق الكون ، والإنسان ، واللغات ، فهو إذن ليس اسماً صاغته ألسنة المخلوقات .. بل تلقته هذه الألسنة من الملأ الأعلى علَماً على ذات المعبود بحق ، واستوعبته العربية ، كما استوعبته سائر اللغات التى تلقت رسالات السماء ، ونطقت به حسب قوانينها ، وتقاليدها ، وقدراتها النطقية . فلا ينبغى أن يدرج فى معجم العربية على أنه كلمة من كلماتها ..

بل على أن اللسان العربى نطقه هكذا كما لقنه ، وكما نطقه غير العرب ، وقد اخترع العبرانيون إلوهيم ، أو يهوه ، كما ورد إيل ، وإلّ ، ولكن يبقى (الله) ، وتتلاشى كل الاختراعات أو الواردات فلفظ الجلالة هو أصل الأسماء ، وأولها ، ومصدرها ، كما أنه مصدر اللغات والألسنة ، وصدق الله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] ، وهو القديم ، وما سواه محدث ، وهو قديم بذاته ، وباسمه قبل أن تكون اللغات .. بل قبل أن تكون الكائنات .

الملائكة

وأما عن (الملائكة) فهى كلمة إسلامية أيضاً .. لم تستخدم فى العربية قبل أن يرد ذكرها فى بداية الوحى ، فى سورة المدثر ، وهى رابع سور القرآن نزولاً ، وقد ردها اللغويون إلى الجذر (ألك) ، الذى اشتقت منه كلمة (مَألك) ، ثم حدث قلب مكانى ، فصارت (مَلأك) ، ثم جمعت فصارت (ملائكة) ، ولا دليل على استخدامها فى العربية قبل القرآن .

وأقطاب (الملائكة) ، وفى مقدمتهم (جبريل وعزرائيل) ، جاءت تسمياتهم مركبة ، وهى شائعة فى كثير من اللغات ، فكلمة (جبرائيل) جزؤها الأول (جبر) بمعنى (رجل) ، وكلمة (عزرائيل) جزؤها الأول (عزر) بمعنى (قوة) ، وهما مضافتان إلى لفظة (إيل) .. أى : الله ، وكأن الأول يعنى : (رجل الله) ، والثانى هو (قوة الله) ، وهى ترجمة متخيلة بقدر ما تسعه اللغة الإنسانية ، وإلا فليس فى الملائكة رجال أو نساء ، ولا يليق أن تحصر قوة الله فى ملك مخلوق واحد .. بل إن التجريد هنا غير لائق ، إذ إن القوة (ومنها : القوى) من أسماء الله وصفاته

الحسنى ، وليست ملكاً بعينه ، خاصة أن اختصاص تَوَفِّى الأحياء مَعْزُوٌّ فى القرآن إلى الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر] ، ومَعْزُوٌّ إلى رسل الله من الملائكة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] ، ومَعْزُوٌّ إلى ملك الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] .. أى : إن قوة الإماتة ليست محصورة فى ملك بعينه ، وعلى أية حال فإن القرآن لم يذكر من أسماء الملائكة سوى (جبريل وميكال) ، ولسنا مكلفين بترجمة معانى هذه الأسماء ، أو التعامل معها على أساس معانيها ، فالأسماء لا تعلل ، إنما هى كتل صوتية لا يلتفت إلى مكوناتها .

إن ذلك يعنى أن هذه التسميات كانت قبل اللغة العربية .. بل هى فعلاً قبل اللغات البشرية ، وأن ما حاول الاشتقاقيون أن يستخرجوه من المعانى فى ضوء الربط بين الاسم ، وجذره اللغوى المفترض ـ هو فى الحقيقة افتعال يقلب القضية رأسا على عقب !!

آدم

لقد حاول الاشتقاقيون أن يجدوا لآدم أصلاً فى (أديم الأرض) الذى خلق منه ، والحق ـ فى نظرنا ـ أن أديم الأرض اشتق من (آدم) الذى يعنى (الإنسان) بالمعنى العام فى كثير من اللغات ، وكان مرتبطا دائما بالتراب ، والطين ، فأطلق على مادته التى خلق منها : أديم ، على سبيل الاشتقاق من الجوامد ، وهو مجاز مرسل علاقته الأصلية والفرعية ، إن صح التصور .

ويمكن أيضاً أن يقال : إن (الأدم) بمعنى : الجلد .. مشتق كذلك من

(آدم) ، ويطلق على الجلد : البشرة ، وللبشرة علاقة لفظية بالكلمة القديمة الأولى فى ملحمة الخلق ، كلمة (بشر) التى تفردت بها العربية ـ كما سبق أن قلنا .

إبليس

أما كلمة (إبليس) فهى موجودة فى لغات قديمة كاليونانية (ديابولوس) ، وهى كلمة تبدو مركبة من جزئين : (ديا + بولوس) ، وقد أخذت اللغات الأوروبية ، باعتبارها أحدث من اليونانية ـ الجزء الأول من التركيب – (ديا) ، ونطقتها (ديابل Diable) ، وأخذت العربية وأخواتها الساميات الجزء الثانى من التركيب كما هو (إبليس) مع تنوع فى طريقة النطق ، هذا ما قرره محقق الزينة .

ولا يبعد فى تقديرنا أن تكون الكلمة من عطاء القرآن للعربية .. وهى أقدم اللغات السامية . فلم نعثر على ما يشهد بوجودها قبل الإسلام فى لسان العرب .. بل إن الكلمة ليس لها مقابل لفظى أو دلالى فى العبرية ، وقد وردت لأول مرة فى القرآن فى سورة (ص) .. أى : فى سياق قصة آدم ، وذكر المعجم الوسيط أن جمع الكلمة : أبالس ، وأبالسة .

أما .. كيف عالج أهل اللغة لفظها ومعناها ؟!

فقد قال اللغويون العرب : إنه على وزن إفعيل ، مشتق من أبلس الرجل : إذا انقطع ولم تكن له حجة ، ويقال : هو من يَئِسَ ، قالوا فى تفسير قوله تعالى ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ ، قال : يائسون ، قال ابن عباس : (لما لعنه الله أبلس من رحمته) ، وقال الفراء : (مبلسون ، يعنى : فى العذاب) ، وقال : (المبلس : اليائس من النجاة والقانط ، وهو

أيضاً المنقطع الحجة ..) .

ويقـال أيضاً : أبلس ، إذا سكت ولم يُحرْ جـواباً .. ، ويقـال : المُبْلسُ : الحزين النادم ، وقد أبلس الرجل إبلاساً ، أى : اكـتأب وحزن ، وفى قوله تعالى ﴿يُبْلِسُ الْـمُجْرِمُونَ﴾ أى : يتندمون ، ويكأبون وييأسون ، وقال مجـاهد فى قوله تـعالى : ﴿يُبْلِسُ الْـمُـجْرِمُـونَ﴾ .. قال : الإبلاس : الفضيـحة ، وقال غيـره : الإبلاس : الخشوع .. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ : قال : خاشعون، وقال غيره : المبلس : المتروك المخذول .

قال صـاحب الزينة : (وكل هذه المعانى قـد جاءت فى الإبلاس ، وهى قريبة بعـضها من بعض ، فكأن إبليس هو مأخـوذ من ذلك ، لأنه افتضح بعصيانه ، فـيئس من رحمة الله ، وحزن وندم ، فصار مخـذولاً متروكاً ، ذليلاً منقطع الحجة ، ساكتاً ، فقيل له : إبليس) (الزينة ١/١٩٢-١٩٣) .

هذه ـ كـما قلنـا رؤية الاشتـقـاقيـين العـرب ، ويكفى أن نلاحظ خطأ استنباطها حين رأى صاحب الزينة أنه قيل له : (إبليس) بعد أن حدث له ما حدث ، على حين أن (إبليس) كان قبل أن يحدث شىء من ذلك !! وإن أطلق عليه بعضهم قبل افتضاحه (عزازيل) !! ولم يثبت ذلك !!

ويرى علماء الغرب أن الكلمة دخلت محـرّفة فى العربية من اليونانية : (ديابولوس) ، وجاء فى المعجم الكبير ١/١٦١ : أن العرب حذفت (ديا) فى أول الكلمة ، وتوصلوا للنطق بالساكن بزيادة الألف فى أوله ، وأنه لم يرد ذكره فى المعاجم الآرامية والسريانية .

يقول محـقق الزينة : (فقد يكون العـرب أخذته من اليونانية مـباشرة باتصالهـم بنصارى العرب الموالين للـكنيسة البـيزنطيـة ، كما أشـار إليه

جفرى) (الزينة : السابق ـ هامش) .

ونقول بعد هذا كله ما سبق أن قلناه من أن ذلك افتعال يقلب القضية رأساً على عقب ، والذى نراه هو أن اللفظ قديم ، مستمد أساساً من علم الله بالقضية ووقائعها ، وعناصرها ، وأن هذه الألفاظ دخلت اللغات الإنسانية عن طريق الأديان ، والكتب المقدسة ، بأية لغة كانت هذه الكتب . وقد يتفق هذا مع ما قاله أبو عبيدة من أن اللفظ اسم أعجمى ، غير أن الأعجمية تعنى فى اصطلاح العلماء : أن اللفظ (إبليس) مستمد من لغة غير عربية ، وهو ما نحاول هنا أن ننفيه ، فاللفظ مستمد من علم الله ، وهو اسم لذلك (المخلوق الملعون) ، ويكفى أن نتعامل معه بهذا الاعتبار ، دون حاجة إلى تأصيله فى العربية ، أو تحليل مادته اللغوية ، وإرجاعه إلى جذر اشتقاقى ، فذلك كله فى نظرنا تلفيق لا يفيد اللغة شيئاً ، مهما فسر (الإبلاس) بما ذكر من المعانى السابقة ، وقد حدث للكلمة فى الاستعمال العربى بعض النضج ، فجمعت ، واشتق منها (الأبلسة) .

الشيطان

أما كلمة (شيطان) ، وجمعها : شياطين فهى عربية قديمة ، وقد تكون من الأصل : شطن ، بمعنى البعد ، فالكلمة بوزن فيعال ، والنون أصلية ، وقد تكون من الأصل : شيط ، شاط ، أى : احترق من الغضب ، فيكون بوزن فعلان ، نحو : حيران ، وهيمان ، فالنون زائدة (الزينة ١٧٩-١٨٠) .

ويطلق على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب : شيطان ، ويقول العرب لكل منفرد بقوته وجلده ، قوى مستقل بنفسه ، منهمك فى

أمره : شيطان ، قال جرير :

أيام يدعوننى الشيطان من غزلى وكُنّ يهويننى إذ كنت شيطاناً

أى : إن النساء يدعونه (شيطاناً) لتفرده بأفعال الشيطان من الغزل وغيره .

ويطلق اسم (شيطان) على الحية خفيفة الجسم قبيحة المنظر ، وهو أحد وجهى التفسير فى قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] انظر (الزينة / ١٨١) .

ومن صفات الشيطان : (المارد) ، وهو فى قوله تعالى : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات] ، وهو خارج عن الطاعة ، ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ .. (١١٨) ﴾ [النساء].

ومن صفاته (الرجيم) فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل] ، والرجيم هو المرجوم ، كاللعين أى : (الملعون) ، وهو أيضاً كذلك بمقتضى الخطاب الأول إليه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] .

ومن صفات الشيطان (الغول) ، وهو ساحر الجن ، وكذلك (السعلاة) وهى أخبث من الغول وأعظمها سحراً .

ومن صفاته : (الوسواس الخناس) ، والوسواس هو الذى يلقى بوسوسته فى القلوب ، حتى يختبل الإنسان ، والخناس هو الذى يهرب عند ذكر الله سبحانه .

ومن صفاته (الغَرور) لم يوصف بذلك غير الشيطان ، وهو وصف

على فعـول ، مثل : ظلوم وحـقود ونؤوم ـ صفـات مبالـغة ، وقد يفـسر (الطيف) أو (الطائف) بأن المقصـود به الشيطان ، وكذلك (الخـيال) ، ويذكر صاحب الزينة أن من الشياطين جنساً يقال له :

(الخُبَّل) ، وهـم الذين يُخَـبلُون الناس ويؤذونهم ، وقد يدفـعونـهم إلى الجنون .. يقـال : رجل مُخَـبَّل : إذا كـان به مس من الجن ، والخبـال هو الجنون واختلاط العقل .

ومن أسماء الشيطان أيضـاً (الطاغوت) ، وهو وارد فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ .. (٥١) ﴾ [النساء] وقوله :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ .. (٢٥٧) ﴾[البقرة].

ومن أجناس الشياطيـن : العفريت ، وجمعـه : عفاريت ، وهو وارد فى القرآن : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل] ، والعفريت مـن كل شىء : (المبالغ ، ويقال : فلان عِفْـرِيَةٌ نِفْرِية ، وعُفارِية . وهو الموثق الخلق الشديد المصحَّح) (الزينة / ١٩١) .

ولم يذكـر صاحب الزينـة من صفـات الشيطـان : القرين ، وجـمعـه : قرناء، وقد وردت الكلمتان فى آى القرآن ، الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ [الزخرف] ، والثانية فى قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [فصلت] ، كمـا ورد ذكر (القرين) فى سـورة (ق) ، فى الآيتين : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) ﴾ [ق] وقوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) ﴾ [ق] .

وورد ذكر القرين أيضاً فى سورة النساء ، فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء] .

وواضح أن وظيفة القرين بمقتضى الآيات شر كل الشر ، غير أن أثر وجود القرين انحصر فى الغفلة عن ذكر الله ، أو محاولة الإغفال ، والمشاغلة بالدنيا ، والعكوف عليها ، دون تجاوز ذلك إلى اختصاص الشيطان الأكبر (إبليس) الذى يحرص على أن يحقق من وراء إغوائه الشرك بالله ، فهو يترك أسباب الشرك من المعاصى ، ومقدماته من الآثام - لمساعديه من شياطين الجن والإنس ، حتى إذا شارف الإنسان حدود الشرك تحرك الملعون بصوته وخيله ورجله ليتم مهمته الكبرى ، ويشهد انتصار وعيده ، وتفوق الغواية على الهداية .

وجاء فى الآثار ذكر شيطان اسمه (خنزب) ، فذلك فى حديث مرفوع عن ابن مسعود : أن للشيطان لمة للإيعاد بالشر ، والتكذيب بالحق ، والقنوط من الخير ، ويبدو أن هذا الشيطان متخصص فى الحيلولة بين المؤمن وصلاته . (زاد المعاد ٢/٣٩) .

إبليس فى القرآن

وقد ورد ذكر إبليس فى القرآن إحدى عشرة مرة ، منها عشر مرات فى مكة ، ومرة واحدة فى المدينة فى سورة البقرة .

ويلاحظ أن مواضع ذكره لم تتجاوز قصة آدم فى تسع مرات ، وجاء ذكره مرتين فى غير القصة ، إحداهما فى سورة الشعراء ، فى سياق يتحدث عن المشركين ، ممن اتخذوا من دون الله آلهة ، قال : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] ، وموضوع

الآية جنود إبليس ، لا إبليس ذاته ، وإن كان إمام أهل النار ، والأخرى فى سورة سبأ فى سياق يتحدث عن موقفهم من دعوة الله ، فأرسل الله عليهم سيل العرم ، وسجل ذلك عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) ﴾ [سبأ] ، وواضح أن الواقعة تشهد بأن إبليس ماثل بشخصة فى الموقف ، فقد حقق وعيده حين قعد لبنى آدم على طريق الإسلام : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - فدفعهم إلى اتخاذ الشركاء ، وأضلهم فكانوا من الغاوين .

فإذا لاحظنا أن إبليس لم يذكر فى وحى المدينة سوى مرة واحدة ، فى سورة البقرة - وأن أكثر ما ذكر كان فى الفترة المكية ، وفى قصة آدم وحدها - أدركنا أن اسم (إبليس) ليس علماً على جنس من المخلوقات الخفية .. بل هو اسم ذات تفردت بقيادة الخلق إلى الشرك ، وهو الذى مثل الدور الأكبر فى قصة بداية العهد الإنسانى ، وقد كان لذكره فى مكة مناسبة ضرورية ، حيث كثر أولياؤه من كفار مكة ، وعتاة الجاهلية ، فكان التركيز عليه لإبراز دوره ، والتنفير منه .

فأما فى المدينة فقد برزت على الساحة أحداث أخرى ، حين كثر أنصار الحق ، وقامت دولته ، وصرحت المواجهة بين جند الله ، وأعدائه ، فناسب أن يقوم بمهمته معه ذريته من كبار الشياطين وصغارهم ، وهم الذين تم التعريف بهم وبشرورهم فى كثير من آيات الوحى المكى والمدنى ، على سواء .

وقد أشار القرآن إلى أن لإبليس ذرية ، فقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] . ولا ندرى كيف تكاثرت الشياطين من ذرية إبليس .. اللهم إلا إذا أخذنا بما ذكره صاحب

المستطرف من أن إبليس (لا يلد ، بل يلقح كالطير ويبيض ويفرخ ، قيل : إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان) (المستطرف/٤٠٢) ، فإذا استبعدنا هذا من قياس التكاثر بين الشياطين على غرار تكاثر الطيور ، والحشرات ، فقد نتصور أن طبيعة إبليس النارية تقبل التكاثر بما يشبه الانقسام ، فيحدث عند احتدام حقده تولد الشرر ، فيكون من كل شرارة شيطان وليد ، يكبر برعاية أبيه ، ويبقى معه إلى أجله المسمى .

وبذلك يبرز دور الشياطين إلى جانب دور (إبليس) زعيمهم الأكبر ، وأبيهم اللعين ، ليتولوا إضلال المؤمنين عن طريق الاستقامة ، ودفعهم إلى المعاصى ، من الكبائر والصغائر ، فمن الواضح إذاً أن كلمة (إبليس) علم أطلق على ذلك الشيطان الأكبر دون ذريته من الشياطين والمردة ، ولهذا لم يَتَسَمَّ باسمه أحد غيره ، فلم يرد فى الاستعمال (إبليس الإنس)، كما ورد (شياطين الإنس) ، وهم الذين نفخ إبليس فى قلوبهم فصاروا له جنداً .

وربما نستطيع أن نتصور واقع العمل بين إبليس وذريته وجنوده من الشياطين ، فى ضوء دلالة النصوص القرآنية بحيث يتولى إبليس محاربة بنى آدم ليصدهم عن الإسلام ، ويغرقهم فى الشرك ، وفى كل ما يؤدى إليه من قول أو عمل ، وتلك مهمة رهيبة تتصل بالمبادئ والعقائد والأديان ، على أن يتولى بقية الشياطين مهمات دون ذلك ، فى مجال الرذيلة والشر .. كلٌّ حسب اقتداره على الإغواء والإضلال ، وإشاعة الفساد ، فمنهم الذكى والغبى ، والنابه والكسول ، ولسوف نزيد الصورة وضوحاً عند استعراض النصوص الواردة بشأن (الشيطان) .

على أن (إبليس) وصف فى القرآن بأنه (شيطان) ، وهو ما يشى به

مثـلاً .. قوله تعالى في سـورة العنكبوت : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] ، فهـذه المهمة الضـخمة ، المتـمثلة فى صـرف هؤلاء الكفرة عن الإيمان ، وصـدهم عن التوحـيد ـ هى مهـمة هائلة لا يقـدر عليهـا سوى (إبليس) ذاته ، الذى وصـف بأنه (الشـيطان) ـ هكذا مـعـرفـاً (بأل) العـهدية ، أى : الشـيطان الذى تعـرفون ، وتذكـرون قـصتـه ووعيـده ، والموقف هنا مع عـاد وثـمـود ـ الذين عـاشـوا فى الفـتـرة مـا بين نوح وإبراهيم .

وأوضح من ذلك دلالـة على أن المراد (بالشـيطان) هـو (إبليس) ـ قوله تعـالى فى سورة (يس) : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس]، إننا نستطيع أن نطردها قاعدة فى كل شيطان معرف (بأل) ، فهو (إبليس) ، ويعتمد فى ذلك أيضا على دلالة السـياق ، فأما إذا جاء اللفظ منكرا فـإننا نرجح أن يكون المراد به واحـداً ، فـالمراد به واحـد من جنس الشياطين .

الشيطان فى القرآن

ورد ذكـر الشيطان فى القـرآن مفـرداً ، وجمـعاً فى سـياقـات توحى باخـتلاف المعنى المقـصود منه . وقـد جاء مـفـرداً فى التنزيل المكى ثلاثاً وثلاثين مرة ، وجاء مفردا فى التنزيل المدنى ثمانياً وعشرين مرة .

أما وروده جمعاً ـ فقـد جاء فى التنزيل المكى خمس عشرة مرة ، وفى التنزيل المدنى ثلاث مرات .

ولقـد نستـطيع أن نميز بعـض وجوه المعنى المراد مـن خلال مـلاحظة ورود الكلمـة معرفة أو منكرة ـ كمـا سبق أن قلنـا ، فإذا جـاء معـرفاً :

(الشيطان) فهو (إبليس) ، وإذا جاء منكراً (شيطان) فهو واحد من جنس الشياطين (من ذرية إبليس) ، وقد جاء اللفظ منكراً (شيطان) فعلا فى خمسة مواضع هى على التوالى بحسب النزول :

السورة السابعة (التكوير) : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير] مكية.

السورة الرابعة والخمسون (الحجر) : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] مكية .

السورة السادسة والخمسون (الصافات) : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾ [الصافات] مكية .

السورة الثانية والستون (الزخرف) : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا .. (٣٦) ﴾ [الزخرف] مكية .

السورة الثالثة والتسعون (النساء) : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) ﴾ [النساء] مدنية .

ويلاحظ أولاً أن الآية فى سورة التكوير هى أولى الآيات التى تعرضت لذكر الشيطان فى القرآن ، فجاءت به منكراً ، وقد كانت العرب تعرف (الشيطان) ، وتراه فى أطياف الشعراء ، فجاء القرآن لينفي أن تكون آياته كأبيات الشعر من طائف الشيطان الذى عرفوه : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير]

ونحسب أن وصف الشيطان هنا بأنه (رجيم) هو الجديد فى هذه البداية ، لتعريف المخاطبين بأن شأن الشيطان أن يرجم بالحجارة ، وهو ما لم يعرفه أهل الجاهلية ، وكأنه يقول لهم : إن ما يمليه الشيطان على عقل الشاعر لا يحمل هداية ، ولا يدعو إلى خير ، فهو عكس ما يتلوه

عليكم محمد ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ [التكوير] ، وقد صمت الوحى بعد ذلك عن ذكر الشيطان ـ منكراً ومعرفاً ـ طيلة ثلاثين سورة ـ حتى جاء ذكر (إبليس) فى سورة (ص) لأول مرة ، وعرض ذكر (الشيطان) مفرداً بعيداً عن قصة آدم ، أى : فى إطار مستقل ، وهو فى قوله تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ [ص] ، وجاء ذكره جمعاً فى قوله تعالى : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص] ، والآيتان تتحدثان عن أمور تتصل بقصتى نبيين كريمين .. أحدهما : أيوب ، الذى دعا ربه أن يخلصه من وساوس الشيطان أثناء مرضه وابتلائه ، والثانى : سليمان الذى سخر الله له الجن والشياطين فى أمور تتصل بما وهبه الله من ملك لم يوهب لأحد بعده ، وحين تأتى قصة آدم فى آخر سورة (ص) يذكر (إبليس) لأول مرة ، وكأنه لا علاقة له بالشيطان ، فلكل منهما مجاله ، ولكن الوحى ينزل بعد ذلك مباشرة بسورة الأعراف (التاسعة والثلاثين) ، فيجمع بين إبليس والشيطان فى قصة آدم ، ويطابق بينهما، ولو أننا قرأنا الآيات حتى قوله تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ لَشَعَرْنا أن كلمة (الشيطان) فى هذا السياق تأتى فى موقع الوصف ، أى : ذلك الشرير المجرم ، وملحظ الوصفية هنا أظهر من ملحظ الاسمية .

ولما كان كل من إبليس والشيطان منتمين إلى خليقة الجن ، فقد نزلت في الأعراف آية تذكر (الجن) هى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ .. (١٧٩)﴾ [الأعراف] ، وجاء بعدها مباشرة سورة الجن (الأربعون نزولاً) لإكمال الصورة بكل مكوناتها ، وليتعرف أهل القرآن على أجزاء ذلك العالم الخفى .. ذلك العالم الذي وصف فى سورة الأعراف بأن له (قبيلاً) ، فقال : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾ [الأعراف] ، وبذلك اكتمل التعريف

بعالم الجن ـ عالم الخفاء .

ولقد تدلنا الآيات الخمس السابقة التى تذكر الشيطان ـ منكراً ـ على الصفات اللصيقة بشخصه ، وهى أنه رجيم مارد مريد ، وكأن هذه هى الحد الأدنى لما يذم به أى شيطان ، فأما أكثر الصفات فقد ذكرتها الآيات الأخرى التى ورد فيها ذكر (الشيطان) معرفا بأداة التعريف ، أو مقترناً بصفات تزيد صورته جلاءً وقبحاً .

غير أننا نقرر هنا أن متابعتنا للآيات الكريمة فى ستة وخمسين موضعاً أكدت لنا أن المراد بالشيطان معرفاً ـ فى أكثرها ـ هو أبليس ، وقد أثبتت له النصوص الصفات التالية :

– فهو موسوس فتان عدو مبين يسلخ الإنسان من آيات ربه ، ويزيده تعرية . (الأعراف) .

– وهو عدو مبين متأله يريد من بنى آدم أن يعبدوه . (يس) .

– وهو نذل يخذل من يصادقه ، ولا تؤمن موالاته . (الفرقان / مريم).

– وهو يدفع حزبه إلى سعير جهنم . (فاطر) .

– وهو كذاب مخادع فاجر لا يخجل من كذبه . (طه) .

– وهو يزين الأعمال القبيحة لتبدو جميلة ، حتى يضل الأفراد والأمم . (العنكبوت / النمل / النحل) .

– وهو يدفع إلى الجريمة والقتل بحكم عدائه للقاتل والمقتول . (القصص) .

– وهو كفور بنعمة ربه ، لا يملك تحقيق ما يعد به ، سوى الغرور . (الإسراء) .

- وهو يدفع الناس ليكيد بعضهم لبعض ، حتى الإخوة . (يوسف) .

- وهو يلقى بالغفلة على العقول لتنسى ذكر الله . (يوسف / الكهف) .

- وهو يقسى القلوب ، ويغشى على العقول ، ويضل عن ذكر الله عند الأكل . (الأنعام) .

- وهو يقود الأبناء على آثار آبائهم من أهل النار . (لقمان) .

- وهو يحتل فراغ النفوس ، وينزغ بوسوسته فى العقول . (فصلت) .

- وهو يصد عن توحيد الله . (الزخرف) .

- وهو منافق وقح ، يعد ثم يخلف فى تبجح . (إبراهيم) .

- وهو يعد بالفقر ، ويأمر بالفحشاء والمنكر ، ويتخبط بنى آدم . (البقرة / النور) .

- وهو وراء ظاهرة الهرب من الميدان ، وهو يزرع الخوف فى نفوس أوليائه . (آل عمران) .

- وهو وراء الموبقات كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، ليثير العداوة بين الناس . (المائدة) .

- وهو قرين السوء ، بعيد الإضلال ، ضعيف الكيد ، لا يعصم من اتباعه إلا فضل الله . (النساء) .

- ولايته خسران ، ووعده غرور . (ق) .

- وهو فتنة لمرضى القلوب قساتها . (الحج) .

- وهو قائد المرتدين على أدبارهم ، يسول لهم ارتدادهم . (محمد) .

- وهو يوقع الإنسان فى الكفر ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه بدعوى

الخوف من الله . (الحشر) .

- وهو وراء التناجى بالإثم والعدوان والمعاصى ، ووراء خسارة حزبه. (المجادلة) .

فهذا عن صفات (الشيطان) فى القرآن ، سواء أريد به (إبليس) بذاته ، أم كان المقصود جندياً من جنوده ، أو شرارة من ذريته ، وهى كما رأينا صفات تغطى حياة بنى آدم ، فى كل أحوالهم .. الدنيوية والأخروية.. وقد رجحنا أن يكون المراد بالشيطان فى هذه النصوص (إبليس) ما دام اللفظ معرَّفاً .

فأما عن ورود اللفظ مجموعاً : (شياطين) - فإن الصورة تختلف ، لأن النشاط الشيطانى سوف يستخدم جماعات كثيرة فى تنفيذ مخططاته على مستوى جماعى . ويمكن أن نميز فى استعمال الكلمة ما بين معرف بأل - ومعرف بالإضافة .

ونبادر إلى تسجيل ملاحظة هى أن استعمال الكلمة مجموعة جاء فى الوحى المكى فى خمسة عشر موضعاً ، وجاء فى الوحى المدنى فى ثلاثة مواضع .

فالشياطين فى المرحلة المكية :

- أولياء للذين لا يؤمنون . (الأعراف) .
- وهم محشورون يوم القيامة مع المكذبين . (مريم) .
- وهم يدفعون الكافرين إلى المعاصى . (مريم) .
- وهم يتنزلون على الكذابين ، لأن أكثرهم كاذبون . (الشعراء) .
- وهم يحاولون أن يستهووا المهتدين . (الأنعام) .

- ومنهم شياطين من الإنس ، كما أن منهم شياطين من الجن. (الأنعام).

- وهم وراء الجدل فى شريعة الله . (الأنعام) .

- وهم إخوان المبذرين . (الإسراء) .

- ولهم همزات ينبغى الاستعاذة بالله منها . (المؤمنون) .

- وقد أعد الله لهم رجوماً فى الدنيا من نجوم السماء . (الملك) .

وفى المرحلة المدنية :

- هم وراء ظاهرة النفاق فى مجتمع المدينة . (البقرة) .

- وهم كذلك وراء انتشار ظاهرة السحر الذى لا يعرفه إلا كافر . (البقرة) .

ولا مجال لتصور إنحسار نشاطهم فى المدينة ، فإن ما جاء فى القرآن صادق الدلالة على ما يراد به ، فى كل مكان وفى كل زمان ، غير أن الصورتين اللتين سجلهما الوحى عن النشاط الشيطانى فى المدينة لم يكن لهما مكان فى مكة ، وإنما انتشرتا فى المدينة ، وهما النفاق والسحر ، وكلاهما بسبب من الكفر .. بل هما أشد ألوان الكفر ، وما زالت المجتمعات الإسلامية تعج بمواكب المنافقين وأحزابهم وطوائفهم ، وما زالت دولة السحر قائمة ، حتى فى معاقل الكبار ومضاجعهم .. تساندهم جماعات من المتاجرين بالدين والشعوذة ، أو من الأغبياء ، أدعياء العلم بالدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهؤلاء هم (شياطين الإنس) الذين عادَوا الأنبياء ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ** .. (١١٢) ﴾ [الأنعام] .

وحين يتقمص (الإنسان) وظيفة الشيطان ، فإنه يكون أخبث طينة ،

وأبشع كيداً ، وأعظم إفساداً من الجن وشياطينهم ، وقد شهد عصرنا أجيالاً من هؤلاء الشياطين .. فى شكل مفكرين ، وساسة وحكام ، وأذناب، وطواغيت و (هلافيت) - إن صح التعبير - وقد جمعوا فى ذواتهم صفات الشيطان الجنى ، وأضافوا إليها أخبث صفات الإنس ، فكانوا مزيجاً من الشرور المرئية وغير المرئية .

كما شهد عصرنا من فنون هؤلاء الشياطين أهوالاً تزيف صورة الحق، فإذا هو باطل يخدع العقول ، ويفنى الأعمار فى متابعته والتعلق به .

نعم ؛ شهد عصرنا ذلك الصراع من أجل احتلال الفضاء ، وشحنه بالموبقات ، ونشر الفجور بكل وسائل الإغراء والاستدراج ، تحت شعارات ظاهرها فيه الرحمة ، وباطنها من قبله العذاب ، وهى شعارات (مصالح الجماهير) و (خدمة الشعب) و (عولمة الثقافة) ، وغير ذلك من دعاوى الباطل ، ولغات (شياطين الإنس) ، والمضمون الوحيد هو الجنس ، والجنس وحده ، حتى يذهل الإنسان عن غايته ، ويفقد اتصاله بهدفه ، ويبقى مجرد متفرج أبله على ألعاب الشياطين .

أما التقدم ، والحضارة ، والعدالة ، والكرامة ، والقوة ، والدين ، والنصر على العدو ، والإعداد للمواجهة المحتومة - فكل ذلك كلام أجوف، لا قيمة له ، ولا مضمون .. يكفى أن ننام على أهازيج السلام ، وأن نستسلم لأحلام اليقظة والمنام ، بعيداً عن الحركة الناشطة ، والعمل الإيجابى ، والبناء الأخلاقى ..

إنها مراقص الشيطان ، ونوادى الأبالسة ، وملاعب الجِنَّة ، وقنوات الاتصال بين أعداء الله من الشياطين الملاعين ..

تأملات فى المسألة الخلْقية

على قـمة عـالية من قـمم جبـال الألب ـ وقفت إلى جـوار شجـرة من الأشجـار العتيـقة أنظر إلى السهـول المنبسطة ، أسفل الجـبال ، ثم أتنزه بعينى وراء الأحراش ، والقمم المواجـهة ، تارة أهبط ، وتارة أصعد ، وهى متنزه لا يتذوقها إلا من سافر إلى تلك الأصقاع .

كنت فى رحلة إلى سويســرا ، لأعالج ما ألمَّ بعينى من قـصور ، أشار بذلك الأطباء المعالجون فى مصر .

وكانت رحلتى إلى جبـال الألب وعداً من أحد الأصدقـاء ، صحبنا وهو يصعد بنا الأعـالى ، ويجوز المنعطفات الثعـبانية الخطرة ، حتى اسـتقربنا على منطقة منبسطة ، بنى فوقها أحد المعاهد الرياضية .

وبينا أنا ساهم فى متابعة المناظر الخلابة ، وما صنعته يد الإنسان من مباهج ممتـعة للزائرين ـ وقعت عينى على ورقة شـجرة تتقاذفهـا دفعات النسائم اللطيـفة ، فتجـعلها ترسم خطا متـعرجا أثناء هبوطهـا إلى أسفل الوادى .. وقد تدور دورات حلزونية ، حسب اتجاه الرياح وسرعتها .

ولمعت فى ذهنــى لحظتـئـذ آية من آيات القـرآن ، مــلأت الموقف كله ، وشغلت المناقشة التى سرعان ما شـدت إليها بعد ذلك كل الرفاق على قمة الجـبل وهى الآية التاسـعة والخمسـون من سورة الأنعـام : ﴿ **وعنده**

مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .

قرأت الآية وعينى تتابع الورقة الطائرة عبر المسافة الهاوية ، وتجلت لعقلى حقيقة الرحلة التى تقطعها الورقة فى سقوطها .. إنها موضوع من موضوعات علم الله **﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾** !!

أهنالك فى الكون كله أسمى جلالا من علم الله ؟!

إن بناء الورقة تم بعلم الله وأمره ، ونسيجها المحكم هو ثمرة هذا العلم ، وانفصالها عن أمها كان معلوما لخالقها ، وطريقها ليس طريق السقوط إلى هاوية العدم (مع أن ذلك هو الظاهر) ، بل هو سقوط سوف يتبعه صعود ، فهى قد انفصلت للقيام بمهمة إلهية .

إن هذه الورقة فى طريقها إلى تربة الأرض ، لكى تتحد بمكوناتها ، وتندمج فى جزئياتها ، وتصبح ذراتها غذاء لما تخرجه الأرض من نبات وشجر ، ومعنى ذلك أن عناصر الورقة قد تعود من خلال التفاعل فى رحلة أخرى لتصبح عنصرا من عناصر غُصْن باسق ، أو ثمر شهىّ ، يطعمه إنسان ، فيصير به قويا ، ويزيد فيعطى نسلا فتيا ، وكل ذلك من المقومات الترابية للورقة ، التى علم الله دورتها الأبدية ودورة كل ورقة أو حبة مخلوقة على وجه الأرض ، وكل ذرة سابحة فى جو السماء ، وبهذا يستمد المخلوق شرف وجوده ، إنه موضوع من موضوعات علم الله ، مهما ضؤل حجمه ، وقل شأنه فى مرأى العين .

كل ما فى البر والبحر ، وكل ما يحمله الشجر من ورق ، وما يعطى

النبات من حب ، وكل رطب ويابس ـ كل ذلك مدون فى كتاب مبين ، كما عبرت الآية .

وقد عبر القرآن عن محتوى الأرض فى قوله تعالى ﴿ **وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام** ﴾ وأقوات الأرض هى قوام وجودها باعتبارها معينا يزود نفسه بنفسه ، ويخرج من جوفه كل موجود على سطحه ، ثم يستعيده إلى حين ، ويهيئه لرحلة أخرى ، هى فى تقدير الله دورة أخرى من دورات الخلق الإلهى . فكل ذرة من ذرات الأرض هى فى حساب الاحتمالات إنسان أو حيوان أو طير ، أو حشر ، من كل مادق وجل من خلق الله .

والهندسة التى أبدعت هذا الخلق هى أدق إحكاما من كل ما عرفه الإنسان من إبداع حضارى .. أى : إن تكوين أى مخلوق ، حتى لو كان ورقة شجرة ، هو فى إحكامه أدق ألف مرة من إحكام أى اختراع للإنسان (طائرة كان أو صاروخا مثلا) .

وهذا هو مفهوم التحدى الذى جاءت به الآية ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾ لأن تكوين الذبابة خلق متكامل ، مستقل عن أى مؤثر خارجى ، وقس على ذلك ما هو أدق كالنملة ، والميكروب ، إننا نعرف عن يقين علمى أن أقدامنا حين تطأ الأرض تدوس ملايين الكائنات الحية ، وربما مليارات الذرات التى تعتبر فى حقيقتها مخلوقات فى حيز القوة ، قبل أن تصبح كذلك فى حيز الفعل .

ولله دره حكيم المعرة حين قال :

خفف الوطء ما أظن أديم　　　الأرض إلا من هذه الأجساد

ورغم أنه لم يدرك من مكونات الأرض إلا وجود الأجساد ، وهى هياكل الآباء والأجداد ، فإنه وقف بذلك على باب السر الإلهى ـ فما أديم الأرض إلا ذرات تتحول إلى أناسى ، أو حيوانات أو طيور ، أو حشرات أو نبات ، أو ما لا نعلم من خلق الله . فى عالم البكتريا ..

ليس فى الأرض ذرة خامدة ، بل هى ذرات دائرة فى مداراتها مهيأة للوثوب من باطن الأرض إلى ظاهرها ، كما أراد الله لها أن تكون ـ إنسانا أو حيواناً أو نباتاً ، أو ما شاء الله مما نعلم أو لا نعلم ، وكل ذلك محكوم بسنة الله ، ذهابا وعودة دائمين فى شكل دائرى زمانى ، ونحن نؤمن بكروية الزمان كما نؤمن بكروية المكان ، وإذا تحققت كروية المكان فى شكلها المادى ، فإن كروية الزمان تتحقق فى شكلها الدائرى (وهو ملحظ لم يفكر فيه أحد ممن تحدثوا فى قصة الخلق) تبعا للقاعدة : ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ إلى أن يأتى وعد الله ، وتقوم الساعة .

إن من رحمة الله العظمى أنه غيب عنا تسعة وتسعين جزءا من العلم ، وسمح لنا بجزء واحد نتعامل به ، ونتراحم ، ونتعايش ، لأنه سبحانه ـ علم أن كيان الإنسان لا يتحمل أكثر من ذلك ، وإلا انسحق تحت وطأة الفيض المعرفى .. فكل ما نقوله ، بل وكل ما ندركه على أى مستوى من المعرفة ـ قطرات من ذلك الجزء المسموح به من علم الله .

ولعل إدراك هذه الحقيقة يُطَامِن من كبرياء الإنسان وغروره مهما شط به المزار فى الإبحار ، فحسبه أن الله قال : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم
تقرير برأى اللجنة العلمية
التى شكلها مجمع البحوث الإسلامية للنظر فى كتاب:
« أبى آدم ـ قصة الخليقة بين الخيال والحقيقة »
للدكتور / عبد الصبور شاهين

اختار المؤلف لدراسته موضوعا دقيقا يصعب على الباحث أن يصل فيه إلى رأى قاطع ، أو قول فصل ، يوافق عليه سائر الباحثين ، وهو موضوع بدء خلق الإنسان ، ومكان آدم ـ عليه السلام ـ فى سلسلة الخلق الإلهى ، وما كان قبله وما كان بعده .. وذلك أن مشهد خلق الإنسان بعيد الغور فى أعماق التاريخ .. وقد وقع حين وقع قبل عصر التدوين والتوثيق .

والنصوص القرآنية فى شأنه ـ على كثرتها ـ لا تعالج التفاصيل التى تبين كيفية الخلق ، كما لا تحدد المسافات الزمنية التى أحاطت بمراحل ذلك الخلق .. لذلك لا يمكن لباحث قديم أو حديث أن يقطع فيه برأى حاسم تؤيده نصوص قطعية الدلالة ، أو تؤيده شواهد علمية نظرية أو تجريبية تبلغ فى دلالاتها مرتبة اليقين العلمى ..

ولذلك كله فإن التفصيلات التى يتناولها الباحث بالعرض وإبداء الرأى، وترجيح احتمال على احتمال تكاد تدخل كلها فى نطاق الغيب الذى

استأثر الله ـ سبحانه ـ بعلمه ..

وإذا كان الباحث ملتزما المنهج الذى حدده لنفسه ـ والذى سنشير إليه ـ قد توصل إلى عدد من الآراء التى استخرجها باستنطاقه النصوص القرآنية ـ كما يقول ـ فإن اللجنة لا تخوض فى هذه الآراء، مصوبة لها أو مخطِّئة وإنما حدد المجمع مهمتها فى التثبت مما إذا كان الكتاب قد اشتمل على آراء مخالفة لنصوص قطعية الورود وقطعية الدلالة، أو خالفت شيئا مما علم من الدين بالضرورة من ثوابت المعتقد الإسلامى أو ثوابت الشريعة . لهذا فقد توجهت ـ وهى تقرأ الكتاب وتعيد قراءته ـ إلى مراجعة أمرين اثنين :

أولهما : المنهج الذى حدده المؤلف لنفسه وسار عليه فى بحثه .

الثانى : مضمون بعض الآراء التى انتهى إليها من حيث اتفاقها مع ثوابت المعتقد الإسلامى مما عرف من الدين بالضرورة ..

أما المنهج الذى اتبعه المؤلف فقد وصفه إجمالا فى مقدمة الكتاب، حيث حدد هدفه من بحثه بأنه محاولة لفهم النصوص التى جاءت فى القرآن الكريم، وهى قطعية (نظنه يعنى قطعية الورود) ، تروى وقائع قصة الخلق وأيضا للتوفيق بين التصوير القرآنى والاتجاه العلمى فى تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض، ولا حرج علينا فى هذا ما دمنا نرعى قداسة النصوص المنزلة، وما دمنا لا نخالف معلوما من الدين بالضرورة، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحترم المنطق، وتستنطق اللغة من جديد، وتدعم إيمان المؤمنين بما ينطوى عليه كتاب الله من أسرار قد تكون خفيت عن بصائر ذوى التمييز، ثم أذن الله ـ سبحانه ـ لبعض السر أن ينكشف، وللرؤية أن تتجلى ..

ولا ترى اللجنة فى هذا التوجه مأخذا تأخذه على الباحث ، ما دام يلتزم به ، ولا يخرج عن ضوابطه .. وقد تبين للجنة أن ما يقصده الباحث (بالاتجاه العلمى) فى تصوير الحياة البشرية على هذه الأرض « إنما هو احترام النتائج التى توصلت إليها علوم الجيولوجيا وعلوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والتى اعتمدت فيما وصلت إليه من نتائج على دراسات مستفيضة ومتواصلة لطبقات الأرض وخواصها ، وللحفريات التى ترشد إلى ما عاش على كوكب الأرض من مخلوقات ، والتى تقدر ـ على وجه التقريب ـ الآماد الفاصلة بين مراحل تطور الحياة على ظهر هذه الكواكب » ، وتفصيل ذلك وارد فى الفصل الثانى من الكتاب ، والذى اختار له المؤلف عنوان « النظرة العلمية ». وقد لاحظت اللجنة أن المؤلف بعد أن أورد آراء العلماء فى العصور الجيولوجية وآمادها الزمنية لم يفته الالتفات إلى نسبيتها ، وأن ما قال به العلماء فى شأنها لا يبلغ أبدا مرتبة اليقين العلمى ، فهو يصفها جميعا (ص ٣٦) بأنها « جملة من النظريات المشتجرة والمتعارضة التى تركز كلها على تاريخ وجود الإنسان ، وأصل هذا المخلوق ، وهى كلها تؤكد نسبة المعلومات التى تضمنتها ، ولكل واحدة منها أدلتها التى تستند إليها فى تقرير جوانب التصور الزمنية والخلقية ، ولا ريب أن فى كل منها شيئا من الحقيقة ، وأشياء من الخيال تصب فى بحر الضلال» ، ويزيد الكاتب موقفه هذا وضوحا حين يعقد فى نهاية الفصل الثانى من كتابه ص ٤٢ مقارنة بين دلالات العلم ودلالة القرآن ، فيقول : (لابد أن نسلم بأن معطيات العلم ليست حقائق مطلقة فى أغلب الأحيان ، بل هى رؤى نسبية ، ومن حيث إن العقل الذى يتوصل إليه مرتهن بقيود من البيئة ، والزمان ، والقدرات الذاتية ، والدلائل

المتاحة.. إلخ .. أما القرآن ـ وهو الكلمة الإلهية فى الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى ـ فإنه ـ ولا شك ـ يقدم للعقل الإنسانى الحقائق النهائية فى الموضوع ، ولكن الأجيال تتفاوت فى فهم النص المقدس ، حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الدينى ـ حتى الآن ـ من النصوص مناقضا للعلم ، ولا سبيل إلى تحقيق اللقاء بينهما ، ونحن نقرر ـ بادئ ذى بدء ـ أن التناقض بين القرآن وما توصل إليه العلم من حقائق نهائية مستحيل ، وإنما يأتى التناقض من جهة أن العلم لم يستقر بعد على بر الحقيقة الكاملة ، بل ما زال يدور فى إطار النظريات الظنية الدلالة ، إلى جانب أن التناقض قد يأتى من ضعف التفكير الذى تتم به معالجة الأفكار ..

وترى اللجنة أن هذا المنهج سليم لا عوج فيه ولا مأخذ عليه ، وأنه هو عين المنهج الذى سار عليه علماء الأمة الثقات فى سعيهم ـ عبر العصور ـ لرفع التناقض الموهوم بين العلم والدين ، وقد بذلوا فى ذلك جهودا كبيرة لم ينكرها عليهم أحد ، بل عدوها جهادا علميا محمودا يؤجر عليه أصحابه ، كما وجدوا فيها نفعا كبيرا وفائدة محققة فى رد (عوادى التشكيك) التى وجهها بعض الفلاسفة وبعض الملاحدة ضد عقائد الإسلام وشرائعه .

أما ما انتهى إليه المؤلف فى موضوع بحثه فيتلخص فيما يلى :ـ

١ – أن الحياة على هذه الأرض قد سبقت خلق الإنسان بآماد طويلة يصعب تحديدها .

٢ – وأن الإنسان الذى كرمه الله وأمر ملائكته بالسجود له هو امتداد لمخلوق واحد هو البشر ، وليس ـ كما تقول نظرية النشوء

والارتقاء ـ حلقة فى سلسلة تطور كانت القردة فيها حلقة سابقة، ثم تطورت إلى أن صارت (الإنسان) الذى نعرفه .

٣ – وأن الله تعالى خلق (البشر) من طين .. ولكن ليس فى آيات القرآن ما يقطع بأن آدم ـ عليه السلام ـ قد خلق مباشرة من ذلك الطين .. وأن الاستعمال القرآنى لكلمة (بشر) يدل على كائن سابق فى الزمان وفى الكيف على (الإنسان) .

٤ – وأنه لا حاجة إلى تحديد حقيقة وطبيعة الطين الذى خلق منه البشر ، فالقرآن يعبر عنه تارة (بالتراب) وتارة بأنه (طين لازب) وثالثة أخرى بأنه (صلصال كالفخار) أو أنه (صلصال من حمأ مسنون) .

٥ – أن الله تعالى قد تناول البشر المخلوق من طين فسواه وصوره ، وأن هذه التسوية لا يلزم أن تكون قد تمت على الفور فى أعقاب الخلق ، بل إن الخلق والتصوير مرحلتان فى عمر البشرية .. لعلهما استغرقتا بضعة ملايين من السنين ، والتصوير هنا يقابل التسوية فى مواضع أخرى ، مع ملاحظة استعمال الأداة (ثم) التى تفيد التراخى بين الأمرين (ص ٨٦) .

ويوجز المؤلف رأيه فى قصة الخلق كلها بقوله : إن الإنسان يخرج من البشر ، وأنه (قبل التسوية) لم يكن المخلوق البشرى إنسانا بل كان مشروع إنسان فى حيز القوة قبل أن يكون إنسانا فى حيز الفعل ..

وفى سياق شرحه لرأيه يشير المؤلف إلى عدد من الآيات القرآنية التى يراها تشهد (لهذا الرأى) .. من ذلك إشارته إلى قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ [المؤمنون : ١٢] .. ويقول فى

بيان وجه استدلاله بها : وكأن الآية تدفع عن العقل إدماج العمليتين فى عملية واحدة ، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت (من طين) ، أى : أنه لم يخلق مباشرة من الطين ، أما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر) وكان ذلك منذ ملايين السنين . ثم يشير المؤلف إلى قوله تعالى فى سورة السجدة : ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه**﴾ [السجدة : ٧ - ٩] .

ويجمع المؤلف رأيه كله فى قوله ص ٩١ :

« فخلق الإنسان بدأ من طين ، أى : فى شكل مشروع بشرى ، ثم استخرج الله منه نسلا (من سلالة من ماء مهين) ثم كانت التسوية ونفخ الروح ، فكان (الإنسان) هو الثمرة فى نهاية المطاف .. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة » ..

ويتحدث الكاتب فى سياق هذا الشرح عما يسميه (مراحل التسوية) مستدلا بآيات لا نراها فى الحقيقة شاهدة بالضرورة لما ينتهى إليه من رأى ، فهو - على سبيل المثال - يستدل بقوله تعالى : ﴿ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ [السجدة :٩]..

وقوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ [النحل : ٧٨] فيقول : إن هذا الجعل قد تم خلال مراحل التسوية .. وإن الله - تعالى - جعل للبشر هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتعادلة حيث شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشرى بما يحتاج إليه من أدوات الكمال .

أما فى خصوص آدم - عليه السلام - وعلاقته بما كان قبله من

المخلوقات .. فيقول المؤلف إنه يستطيع أن يقرر - مع علماء الإنسان - أن الأرض عرفت هذا الخلق الذى ظهر على سطحها منذ ملايين السنين . وقد أطلق العلماء على هذا المخلوق - خطأ أو تجاوزا - لفظ (إنسان) فقالوا : إنسان بكين ، أو إنسان جاوة ، أو إنسان كينا .. واستخدام كلمة (إنسان) فى وصف هؤلاء ليس إلا على سبيل التوسع .. وإلا فاللفظ الدقيق بلغة القرآن والذى ينبغى أن يستخدم فى تسمية تلك المخلوقات العتيقة التى تدل عليها الأحاديث هو البشر ..

أما الإنسان فلا يطلق - بمفهوم القرآن - إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لا غير ، وهو الذى يبدأ بوجود آدم - عليه السلام - وآدم على هذا هو أبو الإنسان وليس أبا البشر ، ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله تمهيدا لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة التذكارية ، باعتباره من نسلهم ..

ويضيف المؤلف (ص ١٠٥) : إن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة .. هى : الخلق ، التسوية ، النفخ .. وأن مرحلة الخلق الأول هى التى أحالت التراب - أو الطين - إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيوانى ، كما تتحرك سائر الكائنات .. ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق فى المرحلة الثانية بالتسوية أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله ، وهى مرحلة التعديل المادى أو الظاهرى ، وقد استغرقت ملايين السنين ، والله أعلم بتفاصيلها ، ثم جاءت المرحلة الثالثة ، وهى المتمثلة فى تزويد المخلوق السوى بالملكات والقدرات العليا التى جوهرها (العقل) .. وبذلك اكتمل مشروع بناء (الإنسان) فكان (آدم) هو أول (الإنسان) وطليعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته ..

ولهذا لا ترى اللجنة فيما كتبه المؤلف محاولة للتوفيق بين العلم والدين بقدر ما ترى فيه اجتهادا منه فى فهم النص القرآنى ، وهو اجتهاد لا توافق اللجنة المؤلف على بعض أجزائه ، حيث لا يكفى ما ساقه فى هذا التدليل ليقرر النتائج التى انتهى إليها ، وإذا كانت اللجنة قد حددت مهمتها - على ما سبق - بأنها بيان ما إذا كان المؤلف قد تجاوز الحد فى تأويلاته للنصوص القرآنية .. تجاوزا يخالف به ثوابت العقيدة أو يتناقض مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، فإن الذى تنتهى إليه اللجنة أن المؤلف لم يقع فى مثل تلك المخالفة .

وإن كان ذلك لا يعنى أن اللجنة تقره على كثير من التأويلات التى أول بها بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وعلى الأخص ما أشار إليه من أن آدم - عليه السلام - يمكن أن يكون قد خلق من أبوين ، وما انتهى إليه فى شأن العلاقة بين البشر والإنسان ، كما أنها لا تقره على بعض التعبيرات التى استخدمها فى سياق تدليله ، والتى ترى اللجنة أنها غير لائقة فى وصف المشيئة الإلهية فى أمر الخلق ..

وتود اللجنة فى ختام تقريرها أن تنبه إلى أمور ثلاثة :

أولاً : أن مجمع البحوث الإسلامية لا يحجر على اجتهاد المجتهدين أو فكر المفكرين ؛ إذ هو مجمع للبحث العلمى ، يشجع الاجتهاد ، ويحرص على ضبط مناهجه ، ويمارس ذلك الاجتهاد بما يقدمه من دراسات وأبحاث لكبار العلماء المتخصصين فى العلوم الإسلامية على اختلافها .

ثانياً : يؤمن المجمع بحاجة هذا الجيل من المسلمين إلى متابعة الاجتهاد وتقليب النظر فى الآفاق وفى الأنفس ، وإلى مواكبة التطورات

العلميـة الهائلة التى غيرت أسـاليب معيشة الـناس وأوضاعهم خـلال القـرن الذى توشك (الإنـسـانيـة) أن تودعـه ، وذلك باجتـهاد متصل وفـقه متـجدد ، وبصر دقيق بحـاجات الناس التى صـارت تتغـير بسـرعة هائلة (بتـغيـر الأمكنة والأزمنة والأحـوال) ، على أن يتم ذلك كله بطبـيـعة الحـال من خـلال منهج علمي أصـولى دقيق ، لا يخـالف فيه البـاحث شيـئا من ثوابت العقيـدة أو الشريعة ، ولا يميل ـ مهمـا كانت البواعث ـ عن قول الحق فى تجرد وصدق وشجاعة .

ثالثاً : يوصـى المجـمع الباحثين ـ دون حـجر على حريتهم فى اخـتيار ما يبحثون أمره وما يكتبون فيه ـ أن يلاحظوا حاجة الأمة إلى علم العلماء واجـتهاد المجتـهدين لمواجهة المشـاكل الكبرى التى تواجه المسلمين ـ أفرادا وجماعات وشعوبا ـ فى عصر سقوط الحواجز بين الشعوب ، وتوجـه أبناء الحضارات المختلفة إلى التـعـارف والـتـواصل ، وفى كل مـا يتـعـرض له الإسـلام والمسلمـون من سوء فـهم بسوء مـعاملة فى كـثيـر من أقطار الأرض ، وأن يتجنبوا ـ ما وسعهم ـ شغل عامة الناس بقضايا قد تكون لهـا ـ على أهميتـها القليلة ـ آثار جانبـية غير نافـعة تشغل الناس عما ينبغى أن يتوجهوا إليه ، أو توقعهم فى حيرة وسـوء فهم وجدال طويل فيما لا ينفعهم ..

كما يوصـى المجـمع الباحثين فى أمور العـقيدة والشريعة ـ خـصوصـا حين يقتضيهم البحث تناول آيات الـكتاب الكريم بالتفسير أو التأويل ـ أن يتـخيروا لآرائـهم المصطلحات والتـعبـيرات التى تناسب مـقام الـوقوف

الخاشع بين يدى كتاب الله ، حتى لا يتوهم قارىء أو مستمع أن استخدام بعض المصطلحات الشائعة والجارية بين الناس ينطوى على مساس بقدسية القرآن الكريم ..

والله تعالى نسأل أن يعصمنا من الزلل ، وأن يعيننا على حمل أمانة العلم بحقها ، وهو ـ سبحانه ـ يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

صادق مجلس مجمع البحوث الإسلامية على هذا التقرير بصيغته هذه فى جلسته يوم الخميس ٢٣ من ربيع الاخر ١٤٢٠ هـ الموافق ٥ من أغسطس ١٩٩٩م التى عقدت برياسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف .

تحريرا فى : ـ ١٤٢٠/٤/٢٥ هـ
١٩٩٩/٨/٧ م

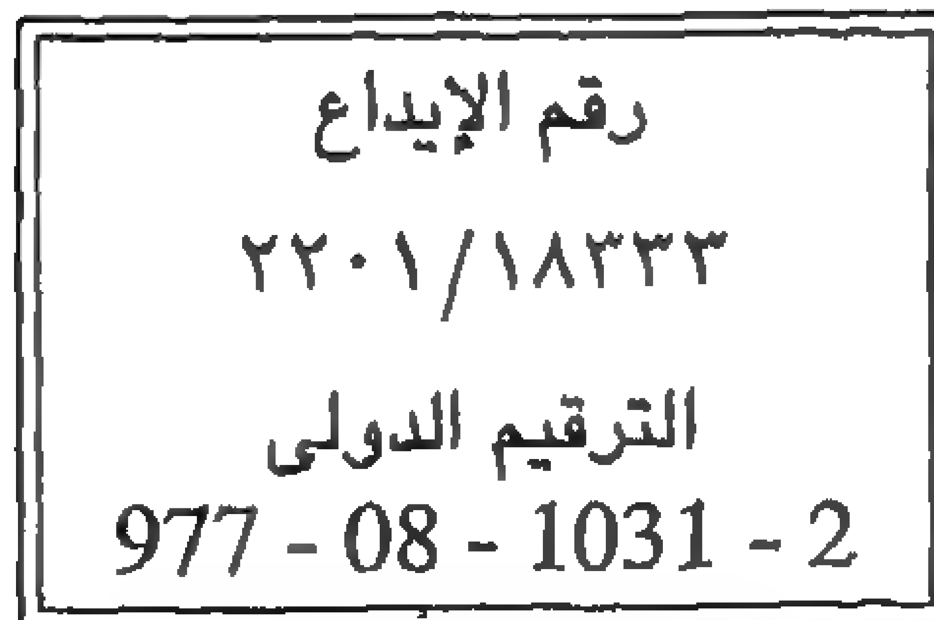
الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية

(سامى محمد متولى الشعراوى)


فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة



رقم الإيداع
٢٢٠١/١٨٣٣٣
الترقيم الدولى
977 - 08 - 1031 - 2

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

أخبار اليوم ٦ أكتوبر